SHA'SHA'AH

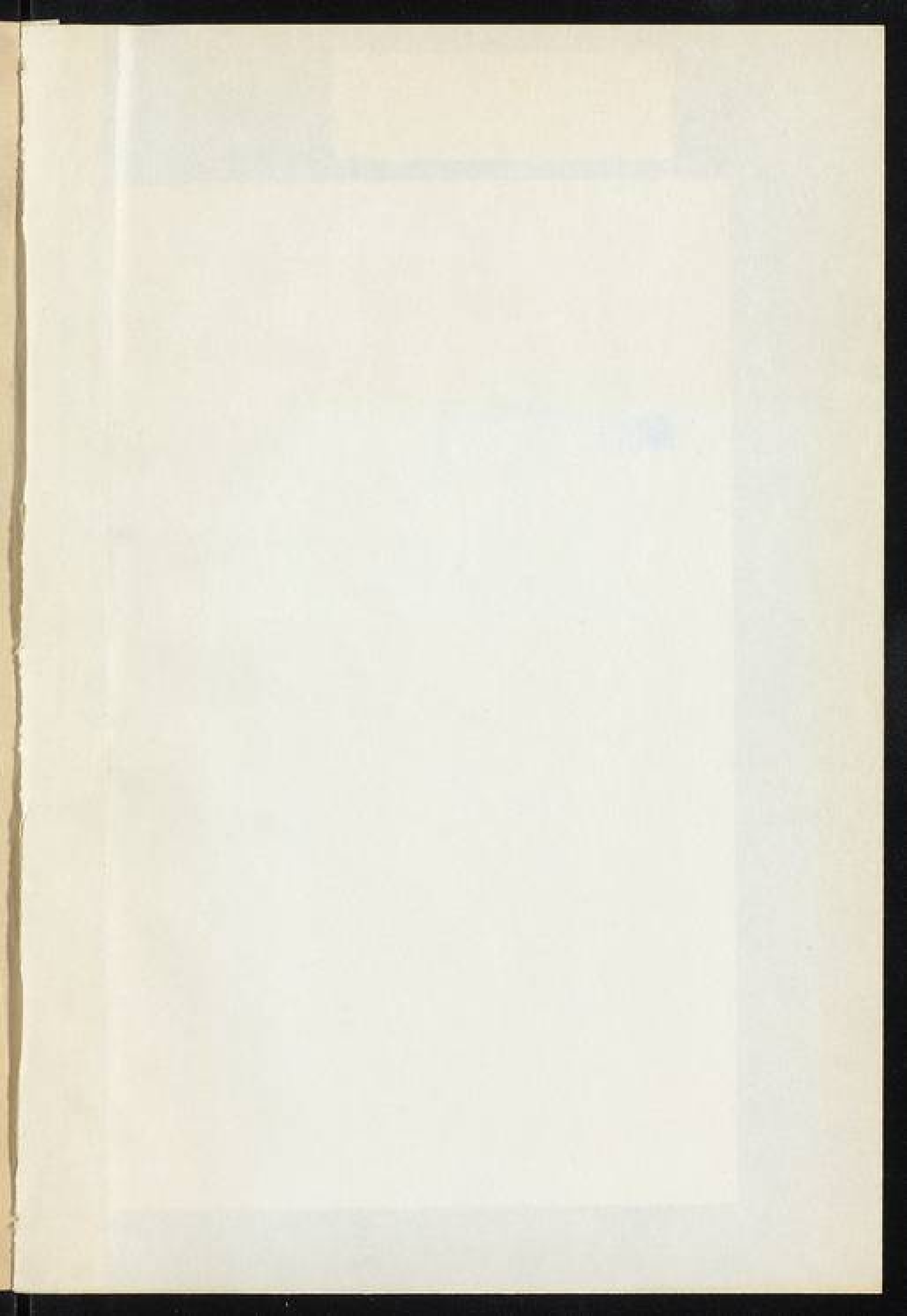
—

DHIKRIYAT
V.1

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE





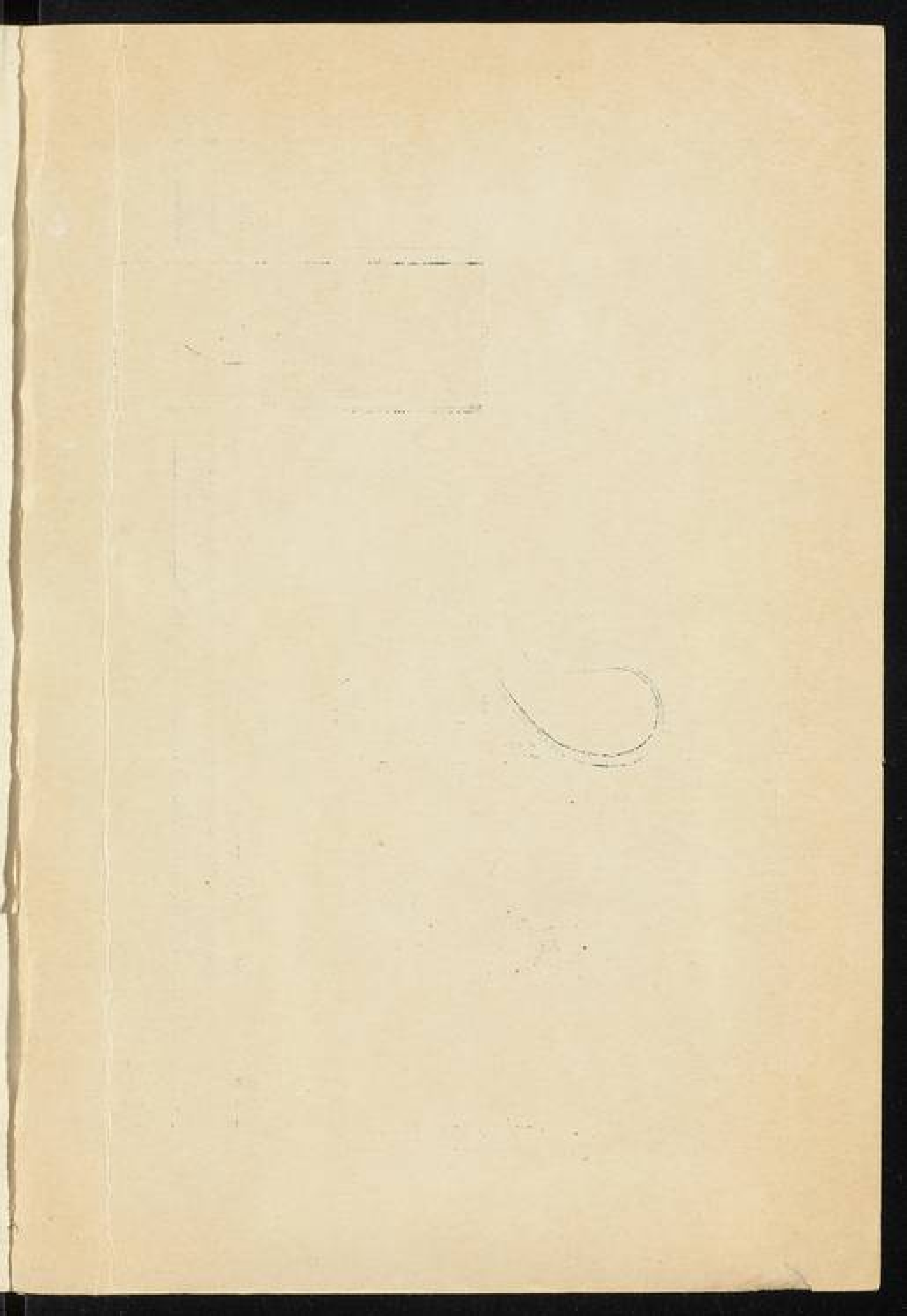


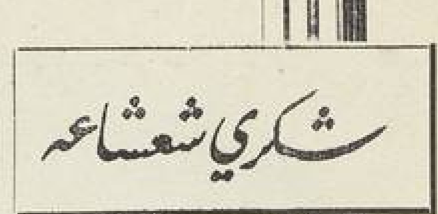
شكري شعشاعة

ذكريات

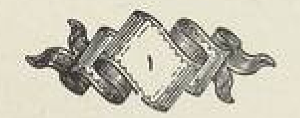
١

مطبعة الاستقلال العربي - عمان

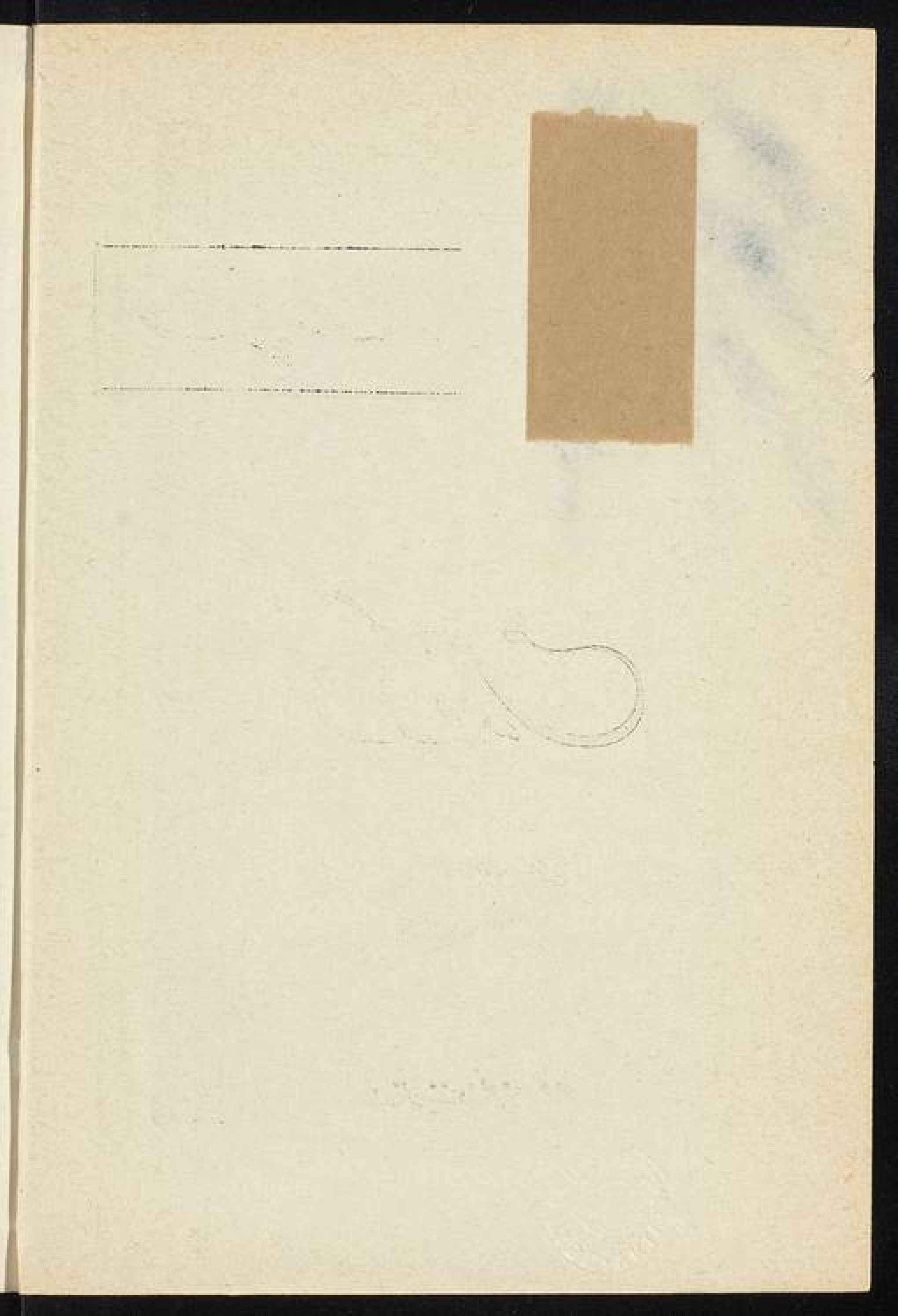




ذكريات



مطبعة الاستقلال العربي - عمان



بين يدي الكتاب

مررت بأيام طويلة ظلماء ، فرأيتني استعصم بالكتابة اعلل بها نفسي ، وأهدف الى اشغالها بالخواطر وبالذكريات وبالعبر . وتخذت الماضي للحديث مجالا ، فهو رحب الافق ، رحب الصدر ، وربما كانت مواعظه أبلغ في الأثر . وأخف على السمع ، واشهى للقلب . وما كنت في البدء ، اقصد أن اخرج بقصة أو كتاب ، ولكن خاطري نزع الى أن اضرب المثل على أن المرء قد يثمر ، وإن احزن ، ولم يكن سبيله سهلا ، ولياليه قمرة بيضاء ، وأن للشدائد فضل الايحاء بالعظات ، وانثيال الخاطر ، وبعث الذكريات ، وامتحان

القلوب ؛ وتمحيص المودات . وهذا ما جعلني أوثر ان يقرأ الجمهور ما كتبت .

ليس الحاضر - فيما احسب - إلا الماضي تحت سماء جديدة ، اما ذكرياتنا - بما فيها من احسان أو اساءة ، من نجاح أو اخفاق ، من غبطة أو شقاء ، فهي لاتخلو من معنى التحذير إن اردنا العظة لنمضي في طريق الخير ننشده للجميع .

ولست ادري أنجحت فيما قصصت عليك ام اخفقت ؟ ، فان كانت الاولى - وهي املي - وطاب لك الحديث ، ولهوت اليه ، وانست به ، فاني اذن ، بما يسرت لك من هذه الذكريات ، لجد مغتبط وسعيد .

شكري شعشاعه

في فجر دنياه

- ١ -

كان وحيد ابوين ثاكلين . فاستهلت حياته في احضان الحنان والحب . وتألقت دنيا الوالدين في اشراق غرته ، حين يصبح وحين يمسي ، حين يمرح وحين يرف ويعدو ، فهما يريان فيه مباهج الدنيا ، وهو منهما في رحب من الاعزاز ، وفيض من الحنو ، وغمر من العناية .

بل لقد كان عندهما رجعاً لصدى وجودهما ، وامتداداً لحياتهما ، فهو ذكرى الشباب المطوي يعيشان عليها ، وأثارة من حرارة الصبا يصطليان بها ، وبقية الدنيا الجديبة ، وبصيص الماضي يتنظران على ضوئه اطياف ايامهما الاولى : ايام الاماني الحالمة ، والخيال المنساب ، والدنيا اللعوب .

انك لتمطي دنياك حين تأخذ منها ، فهي تجود اذ تسلب . وهذا الصبي ، انما صار الى هذه الدنيا العريضة ، حين كتب له ان يعيش وحيد ابوين ثاكلين . ولعله ظل يشعر بالحزن ، ويحس وجع الوحدة ،

ووحشة الانفراد ، ما وقع بصره على اخوين .

أولسنا ، ونحن نقضي اوطارنا ، ونمشي الى ملذاتنا ، ونلين ونسترسل في طاعة اهوائنا ، نبذل الكثير او القليل من النفس ، ونستهلك القليل أو الكثير من الطاقة ؟ ، بلى نحن كما قال النواسي :

ما ارتد طرف امرىءٍ بلذته الا وشيءٌ يموت في جسده

يهل الربيع ، وتتفتح الازاهير ، وتعشوشب المروج ، ويغرد الطير ، فتضحك الدنيا مغتبطة بصورتها ، ويشرق الكون مزهواً بزينته ، وانت اذا فكرت في هذه الصور ، تراءت لك كأنما هي في حقائقها تأهب واحتشاد للخريف .

يأتي الربيع وكل شيءٍ ضاحك ثم الخريف وكل شيءٍ باك (١)

- ٢ -

ومشى الزمان ، فاذا الصبي يشب ويترعرع ويبفع ، ويصحو من غفوة الطفولة ويفتح عينيه على دنياه ، فيحس وجوده ، ويفكر ويحاول ان يدرك ما يرى ، وان يفهم ما يسمع . ولعله ظل ردحاً من الزمان ؛ وفي رأسه أخيلة فيها الكثير من علامات الاستفهام .

(١) كل شعر في هذا الكتاب لم ينسب الى قائله فهو للكاتب .

فتح عينيه على دنياه ، فالفاها موزعة بين البيت والمدرسة والمسجد .
فاما البيت ، ففيه والدته الحبيبة الرؤوم . وهو يذكر نهوضها في الصباح الباكر مع الطير ، لا لتشغل نفسها بما يهتم به النساء عادة ، من هذه الامور المتصلة بهن ، ولا لتقضي شأناً من شؤون البيت ، بل لتقوم على تجهيز طعامه ، واعداد ملبسه ، وتهيئة ادواته المدرسية ، حتى اذا نهض من فراشه ، وجد كل شيء جاهزاً مهيئاً ، وأمه قائمة على خدمته ، ماثلة بين يديه ، تقدم له ما يريد ، وتساعده فيما يريد ، وتبذل له ماعندها من رأي ورشد ، وعطف وحنان .

يذكر هذا ، ولا ينساه . وان نسي كل شيء ، فهيهات ينسى هذه القبل الحلوة الفرحة الحزينة ، تطبعها على وجنته ، وعلى جبينه ، مودعة مستقبلة ، اذ يغادر البيت ، واذ يعود اليه ، فهي ذوب نفسها ، وخفق قلبها ، ورفيف آمالها ، وليست هي للحب والحنان وكفى ، بل كان فيها شيء من الحزن والخوف واشياء مبهمة غامضة ، مكظومة مستسرة ، يحسها في ابهام ، ويشعر بها في غموض ، ولا يدرك لها مغزى ، فهو منها في حيرة ماحة ، وتساؤل مستمر ، كلما غمره فيض من هذا الحنان والحب ، واستمتع بهذه القبل الحلوة الفرحة الحزينة .

ويذكر الصبي من أمه ، أنها كانت بادية الوجوم ، طويلة الصمت ، قليلة الحديث ، واذا تكلمت ، حين لا يكون بد من الكلام ، فموجزة مقتصرة على ما يصرح برأيها ، او يفيد غرضها ، فكأنها تجد الراحة في الصمت ، والغبطة في الاصغاء ، او تجد حظها في اذنيها ، وليس في لسانها ، ولعلها على صواب في هذا الذي اختارته لنفسها ، أو هذا الذي ألزمت به نفسها ؛ فالاذن تأخذ ، بينما اللسان يعطي ، وقد يسرف في العطاء .

ولا يدري الصبي ، أكان هذا الحزن الصامت ، وان شئت فقل هذا الصمت الحزين ، يرافق أمه جري الطبع ، وسوق الفطرة ، أم هو ما ترك الثكل وخلف الموت ؟ . هو يعلم ان قد سبقه عدد ليس بقليل من البنين ، وان هذا العدد من اخوانه كلهم طواهم الموت ، قبل ان يجيء الى الدنيا ؛ وان ابويه شجيا بغصة الثكل ، وطعما مرارة الفقد ، وذاقا حسرة الموت .

كان يعلم هذا ، لا من امه ولا من ابيه ، فلقد كانا لا يفتحان فيه فماً ؛ بل من احاديث دارت على الالسنة في مجالس ذويه ، فبلغت اذنيه ، فتلقاها يومئذ من دون ان يعيرها منه اهتماماً ، فهو حدث لا يحس من دنياه الا ما اتصل به هو نفسه .

ربما كان حزن هذه الام ، طبيعة فيها خلق معها ، وخلقت معه ، وربما كان الثكل قد جلبه ، والخوف على وحيدها أمده وقواه ، اولعل كل اولئك جميعاً ، كان السبب الذي يرجع اليه حزنها ووجومها. وهو يذكر انه كان يجد في مسحة الحزن الرقيقة الشاحبة ، ترف على محياها ، شيئاً من العذوبة والرقة والرضا ، فكان يطيل النظر اليها احياناً ، فتحسه فتأخذه الى صدرها ، فتطبع على وجنتيه قبلتين حارتين صارختين ، فيهما امل المستقبل المطل ، الى جانب حرقة الماضي المضمحل .

ويذكر صاحبنا أن امه لم تكن اماً فحسب ؛ بل كانت الى جانب الامومة صديقة تواسيه ؛ ومعلمة ترشده وتهديه . فكثيراً مافتحت له قلبها ، وسألته الرأي في بعض شؤونها ، وتحدثت اليه فيما يجعله يأنس بها ، ويجرأ على مفاتحتها في مشكلاته ، وبثها بنات نفسه ، وامتد التشجيع ، وطالت المؤانسة ؛ بل هذه الرياضة اللينة البارعة ، ان صح هذا التعبير ، فاذا الصبي يكاشفها بالامر يعسر عليه في صلته بأترابه ، او يلقى منه ما يؤذيه ويبهظه . وانه ليحمد لها هذا الذي شجعته عليه ، فكثيراً ما دفع به الهم والاذى عن نفسه . حين كان يلوذ بها ويرجع الى مشورتها ، ويلتمس هدايتها وارشادها .

ولعله يذكر اكثر ما يذكر منها ، يوم عاد اليها يحمل بين جنبيه هما ثقيلا ، رجع به عقب خصومة ذر قرنها بينه وبين ترب له . فاذا هو يلقي بنفسه بين ذراعيها ، وبذات صدره اليها . فتأخذه الى مقر الحنان ، فتواسيه وتخفف من همه وتهون من امره . وترشده الى ما ازال الخصومة . واعاد الصفاء بينه وبين تربه ذاك . فقد دلته على ان يعمد برغم هذه الخصومة . وهذا الجفاء ، الى ذكر صاحبه بالخير في احاديثه . وان يبتعد عن اسباب الخلاف . وان ينصف هذا الصاحب من نفسه . ويعرف له حقه . وان يستمر على هذا التدبير . ويصبر علية . فكانها علمت بقول معن بن أوس المزني الشاعر :

فما زلت في ليني له وتعطفي	عليه ، كما تحنو على الولد الام
لأستل منه الضغن حتى سللته	وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم

ولقد اطاع ، فعمل بمشورتها ، ولم يلبث الا قليلا ، حتى استعاد صداقة صاحبه من جديد . واتصل بينهما الصفاء على احسن ما كان من قبل .

واصدق الظن انه انتفع في حياته ، من بعد ، بهذه التجربة ، وان كانت الايام في شوط آخر من عمره ، علمته ان هنالك صنفا من البشر ، لا يعرف الا ان يخاف ويخشى ، وان هذا الصنف يحسب الخلق

الكريم فيك ضعفاً وجبنا ، فيسيء اليك اذ تحسن ، ويقسو اذ تلين ، ويخون ويغدر اذ تركن اليه ، وللحياة دائما جوانب تعمى على التقدير وتعز على الفطن ، فتظل خارج الحساب .

وكانت امه تحاول ان تنشئه على فكرة الاقتصاد ؛ فتتعمد ان تمر واياه في طريقهما ، ببناء جميل ، فتلفته اليه ، وتقص عليه من حديث صاحبه ، ما يجعله يؤمن بان الادخار مشفوعا بحسن التدبير في الانفاق ، هو السبب القوي في امتلاك مثل ذلك البنـاء ، وعلى هذا النحو ، كانت تحفزه على التأثل ، وتوقظ وعيه ، وتحثه على التفكير في الادخار ، بل وعلى ممارسة الادخار .

وكما كانت في سبيل تنشئته على ادراك معاني الاقتصاد ، ومرامي الادخار ، كانت كذلك في سبيل سوقه بالممارسة الى معرفة قيم الاشياء ، فعودته الرضاء بان لا يتناول نفقة الاسبوع منها مالم يقم بعمل للبيت ، ربمـا كان يسيراً ، وهينا ، ولكنه على كل حال مجهود ياتيه صاحبنا ، فيستحق عليه اجره ذاك . واغلب الظن انه كان يقف ، ان قليلا وان كثيراً ، ليتذكر ما قام به من عمل او اعمـال ، قبل ان ينفق شيئا من هذه النقود التي احرزهـا بهذا المجهود اليسير .

رأى يوماً جمالا كثيرة تحمل حبوبا لرجل من الجيرة . وعلم أنها جميعاً غلة اراضيـه . فقـام في نفسه ما جعله يظن الرجل ثريا ، واذ حدث والدته بما ظن ، انكرت عليه هذا الظن ، فاستزادها ايضاحا ، وهو في حيرة من ما سمع ، فقالت : « هذا الرجل ينفق اكثر من دخله ، ويستدين على كثرة ما يملك . ومن كان هذا عيشه ، وهذه حاله ، كان مكانه في صف الفقراء » .

وها قد مضت الاعوام الطويلة ، وصاحبنا لا يقرأ في (البيان والتبيين) حديث أبان بن الوليد وأياس بن معاوية ، اذ قـال الاول للثاني : (« انا اغنى منك » ، فقال أياس : « بل انا اغنى منك » قال أبان : « وكيف ولي كذا وكذا وعدد اموالا » ، قال : « ان كسبك لا يفضل عن مؤنتك ، وكسبي يفضل عن مؤنتي ») .

لا يقرأ هذا الحديث ، الا ذكر رأي والدته ذاك وطلب لها الرحمة . وربما سقطت من عينيه دمعة ، فمسحها في صمت واجم . وحزن كظيم .

ويذكر الصبي خلة اخرى ، ارادته على ان يدرج عليها ، فكانت حين تعلم بحاجته الى شيء من هذه الادوات المدرسية تقول : « في مقدورك ان تبتاع ما يعوزك من الاقلام بثمن رخيص ، اذا انت

اشتريتها جملة ، وليس على مقادير صغيرة متفرقة . ان البائع يؤثر ان يبيعك اثني عشر قلماً جملة بعشرة قروش ، على ان يبيعك القلم الواحد بقرش واحد ، حين تبتاعها قلماً قلماً ، وحيناً بعد حين ، وأنت تربح بهذا التدبير قرشين اثنين ، وتوفر من وقتك ، وتقتصد من طاقتك وجهدك ، فحسبك ان تذهب مرة واحدة الى حانوت البائع ، في حالة شراء الجملة ، بدلا من عشر مرات تتجشم فيها مشقة الذهاب اليه ، في حالة الشراء بالاشتات ».

ولشد ما كان يعتز بهذين القرشين يربحهما من بائع القرطاسية . واذ يقص احياناً حديث ربحه هذا على لداته من التلاميذ ، كان يحس شيئاً من الشعور بالتفوق ، ولكنه كان على كل حال يذكر في سره فضل امه .

وذات يوم جاءها عجلان يحدثها في غير اناة ، وبصوت اختلطت نبراته ، وتزاحمت الفاظه ، وشذت أوتاره ؛ فاستمعت الى ما يقول ، والى آخر ما اراد أن يقول ؛ ولم تتركه يمضي ، بل اخذت بيمينه ودخلت به الى غرفة ، فعمدت الى مزهر كان على صوان للثياب ، فجردته من قميصه وشرعت تنقر اوتاره على عجل ، وكانت غير متزنة ، ثم اصلحته واخذت تنقر الاوتار من جديد ، نقرات

خاصة ، وانقطعت ملتفة اليه ، فسألته رأيه فيما يؤثر ان يسمع من هذه الاصوات ، فآثر صوت الوتر المتزن . وحينئذ لفتته الى هـذا الفرق بين الاصوات في الحديث ، والى مدى تأثيره في السمع ، وجملته يعلم بان الكثير مما يفرق بين الناس ، أو يقرب ما بينهم ، يرتد الى وقع الصوت ؛ فان كان جافي النبرة ، شاذ الوتر ، كان الجفاء وسوء التفاهم ، وان كان صافياً هادئاً ، كانت الالفة ، و كان التفاهم ، وكانت الصلات الطيبة ، واذ عرف صاحبنا هذا ، وادركه وفطن له ، صار يحرص على ان لا يجد السامع جفاء او شذوذاً في صوته .

وامتدت عناية الام به ، وامتد سهرها عليه ، الى هذه الامور الصحية ، فحرصت على ان تلقنه ضرورة اداء حق الطعام ؛ من حيث حاجته الى المضغ واللعاب ، كما حرصت على تلقينه حق البدن على الانسان ، فيما يطلب من النظافة والراحة والرياضة . فهل كانت في هذا كله بصيرة بفن الحياة ؟ : هذا الذي غاب علمه عن الاجيال السالفة ، ولا يزال غائباً عن جمهرة الآباء في الاسر ، والاساتذه في المدارس ، والذي من حقه ان يلقنه اطفـال اليوم مع الحروف الهجائية ؛ بل قبل الحروف الهجائية .

ولكن مالنا وللدخول فيما لا يتصل بحديثنا . فنحن في سبيل ذكريات بين الصبي وامه . ويريحه اليوم ان يجهر بحقها الكبير ، وبانه لا يعرف شيئاً مهما عظم وجل ، يوفيه او ينهض به . ولقد امتد به العمر ، وطال هذا الامتداد ، ولا يزال يشعر بحاجته اليها فيما بينه وبين نفسه ؛ فيذرف الدمع احياناً ، واحيانا يتعزى ببعض العزاء اذ يردد هذه الابيات :

ليس في الدنيا صنيع كصنيع الامهات
تشرف الام على المو ت لتأتي بالحياة
انها قلب سخي قد تناهى في الهبات
فاذكروها ايها الابـــناء فوق الذكريات
واكرموها في الحياة وارحموها في الممات

- ٣ -

ويستأنف صاحبنا ذكرياته ، فيرتد بها الى ابيه ، وهي ههنا شاحبة حزينة ، ربما اشجتك فذكرت معها قول شوقي :

انما الدنيا شجون تلتقي وحزين يتأسى بحزين

وربما وعظتك ، فغيرت من صور الاشياء في نظرك ، وربما

أثارت دواعي الاسى في نفسك ، أو احدثت عهدا في قلبك جديداً .

ولكن من اين يبدأ حديث هذه الذكريات ؟ فهي في رأسه ليست متسلسلة الوقائع ، متناسقة الصور ، مؤتلفة الالوان ، فيجري فيها الحديث سلسلا هيناً يسيراً ، لا تكاد تتناوله حتى تمضي فيه بلا عسر ولا مشقة . ولعل الخير في ان يعود الصبي الى صورة ابيه في ذهنه ، فينقلها وان تقادم عليها العهد ، وامتد الزمان . فلقد كان في هذه الصورة منفرداً بنفسه ، غريباً في دنيا الناس ، محباً لولده ، محباً لاهله ، ومحباً للناس جميعاً ؛ يحب بقلبه ، ويحب بيده ، ويحب عياله ، ويريد الخير لمن افتقر اليه ، ويسعى بالبر لمن قست عليه أيامه ، واساء اليه حظه ، أو قل المجتمع على التحقيق .

وكان يقول دائماً : زمن الحياة قصير ، لا يتسع الا للحب ، والا للتساهل والتسامح . وانت حين تخلط نفسك بنفسه ، تجده اذا قال فعل ، واذا وعد اوفى ، واذا حدثك لم يحدثك الا فيما هو حق عنده ، والا فيما هو صدق عنده ، ويغلب عليه ان يصدق ما يسمع منك ، وان يعلل الاشياء من جوانبها الخيرة ، ولكنه على اسرافه في هذا كله ، لم يجد في دنيا الناس ما كان يظن . فالحب في نظره هو العوض ، او هو الثمن الذي يجب ان يبذل للحب ولا شيء

غيره . والصدق هو البديل الذي يجب ان يبادل به الصدق ولا شيء غيره . والنجدة من حقها ان تقابل بالنجدة . والخير بالخير ، والبر بالبر ، ولا شيء غير هذا .

وما كان ليتصور ، ان الاحسان قد يقابل بالاساءة ، وان الصديق قد يخدع ، والقريب قد يطمع ، وان بين الناس من يستعير من الافعى ملامسها وسمها ، ومن الثعلب ختله وغدره ، ومن الوحش اظفاره ونابه ؛ كانه كان على فطرة عامر بن عبدالله بن الزبير : فلقد قيل عنه أنه ترك المسجد ذات يوم ، وكان قد اخذ عطاءه ، فلما صار في منزله وذكره ، بعث رسولا ليأتيه به ، فقال له : « واين تجد ذلك المال » ؟ قال : « سبحان الله أو يأخذ أحد ما ليس له » . وغالب الظن ان والد الصبي كان يرى الدنيا على ضوء هذه الابيات :

ارى الحياة بلا سعي ولا عمل	لصالح الناس تقصيراً واجراما
ولا ازكي اخاً ان عاش في صمم	عن النداء وان صلى وان صاماً
فانت ان عشت للمعروف تصنعه	جزاك ربك ايماناً واكراما
وقل همك في الدنيا وان نشرت	هموم دنياك اوجاعاً وآلاما
فعش كريماً يداوي البؤس مطلعه	ويغمر الناس احساناً وانعاما

ولكنه رجع ذات مساء ، أو ذات صبـاح ، من حلمه هذا ، أو من غفلته هذه ، بالخيبة المريرة ، والالم الممض اللاذع ، فلقد تكشفت الدنيا لعينيه ، فاذا هي دون ما قدر ، واسوأ ممـا قدر ، واذا الطبيعة البشرية ترفض ان يكون لها مثل هذه الطيبة ، وهذه الحلاوة ، واذا هم الناس مصروف في الغـالب الى التمويه بالالوان الغرارة ، والاصباغ البراقة الخادعة ، واذا هو يكره الدنيا صادقاً ، كما احبها صادقاً ، ويرى فيمن عرف وعاشر واعان ، غير ما حسب من قبل ، فانت تراه يعيش اليوم راضياً سا كناً ، ولـكن هـذا الرضا ، وهذا السكون كوجه الماء لا يدل على ما يضطرب في الاعماق .

وينتقل محدثنا الى حظه من ابيه ، فلقد كان يريده على ان يتعرف دخائل الحياة على حساب مرارتها ، وان يتدرج في هذه المعرفة معتمداً على تجاربه ، وليس على الآخرين ، وان يتتلمذ على اخطائه حين يخطىء ، وعلى فطنته ولفتات ذهنه حين يشهد اغلاط غيره . ولعل هذا ما حفزه على ان يسهل للصبي وسائل المخالطة ، وفرص الاستماع والمشـاهدة .

ومن كانت هذه طبيعة تفكيره ، فليس هو بالاب الذي يتجهم للاخطار غير الآثمة ، يقع فيها بنوه ، فترده الى الاخذ بوسائل

اللوم تارة ووسائل العنف اخرى . واذن فليس غريباً ان لا يحمل الصبي غير خير الذكريات لابيه . وهو الآن يشعر بالحزن بالغاً شديداً على انه مات قبل ان يبلغ ابنه القدرة على الوفاء ، وان كان لا سبيل الى النهوض بحقوق الآباء مهما عظمت الخدمة ، وجل التعظيم ، وتفانيت او تناهيت في اكرام ابيك .



- ٤ -

وليس في كل ما ذكرنا حتى الآن ما يعطيك صورة ، تامة للرجل ، فانت ما زلت لا تعلم بان الصبي حين وعى ، كان ابوه قد قعد عن الضرب وراء الرزق ؛ واخذت آفاقه تضيق ، وظروفه تتحرج .

ولعلك تجد في قصته ما يثير غيظك وحنقك على الطبيعة البشرية ، فقد استهدف لطمع ذوي قرباه ، فسلبوه ما كان يعول عليه من عقار ضئيل ورثه من ابيه ، ثم غدا عرضة لكيد واحد من اصدقائه ، فترك العمل الذي يزامله فيه ، انفة وزهداً ، ورضي لنفسه بهذا الحرمان من مورد رزقه ، غير آسف على ما فعل ، ولا نادم على ما اقدم عليه ، فالرجل الحر الاصيل في نظره خليق به ان يترك الارفق بحاله ، الى الاجمل والامثل بها . وهكذا لم يتبق له ما يستعين به على تكاليف الحياة ، الا صبابة من اصل مال ضحل يتبلغ بها ، ويحيا عليها .

وظني انك تحب ان تعرف في البدء قصة ذوي قرباه ، فيرجع بك الصبي لا الى ابيه ، بل الى جده . فلقد كان هذا الجد وأخ له يعيشان على مائدة واحدة ، ويشربان من كوب واحد ، فما كان في

البيت من متاع ، وللاسرة من عقار ، وما كسب الاخوان ،ورزقا من نشب ، فهو للاثنين . وظلا يعيشان على هذا الوفاق الجميل ، الى ان ماتا ، فانتقل المال والعقار الى من خلفا من بنين وبنات وازواج .

اما العقار ، وهو عقدة القصة ، فكان تسجيله عند الحكومة للاخ الاكبر ، ولم يكن هذا لانه يملكه دون اخيه جد الصبي ، بل لان الاول يتعاطى ضمان عشور القرى ، على نسق ما جرت عليه الامور ايام سلطان الترك على العرب . وكان لا بد من تقديم كفالة عقارية تتطلب مراسم قانونية ، يجيء الكفلاء من اجلها الى دواوين الحكومة . والاخ الاصغر عزوف بطبعه عن قرع الابواب ، وله في التجارة ما يأخذ عليه وقته ، ثم هو لا يريد في حياة اخيه ان يكون له حق معلوم .

ولكن هذا الاستسلام من الجد ، كان بلاء على والد الصبي حين طمع فيه ذوو قرباه ، وكانت الكلمة العليا لقضاة يعيشون على الجهل والشهوات . فلقد ظل يطالب بحقه في المحاكم ، ويناشدها هذا العدل الضائع ، ويتردد على ابوابها اعواماً طوالا ، ويبذل من المال ما كان في اشد الحاجة اليه . ثم نظر فاذا هو بعد هذا الجهد ، وهذا البذل ، قد خسر حقه ، واضاع عقاره ، فساء ظنه في

القضاء . كما ساء ظنه ، وخاب رجاؤه في صلات القربى ، وحقوق الارحام هذه التي يقدسها الناس بالسنتهم وليس في قلوبهم .

وتقدمت بالصبي سنه ، وعمقت نظرته ، ووعت فطنته ، وطافت به ، ذات يوم ، ذكرى ماقصصنا عليك ، فانشد يقول :

فكرت فيما يزجر الانسان عن ما قد يسيء به الى الانسان
فوجدت في القربى حبائل طامع ووجدت في الاخلاق كل هوان
ووجدت فعل الشر فيه سلامة ووجدت فعل الخير فعل جبان
ووجدت فحش القول اصون للفتى من ان يوالي الناس بالاحسان
ووجدت هم الناس مصروفا الى التـمويه بالاصباغ والالوان
قدم الزمان وما تزال طباعنا فعلا تمثل شرة الحيوان

ذلك ما كان من اثر القصة في نفس صاحبنا ولعلك خالفته فيما ذهب اليه ، أولعلك وافقته فيه ، ولكنك على كل حال تسلم معه فيما نظن ، بان احكامنا كثيراً ما تمر بالعاطفة قبلما تمر بالعقل .



- ٥ -

والآن لعلك شيق النفس الى العبرة او الطرافة في حديث الصديق . فقد علم الصبي بان اباه اضطر ، بعد ما خسر دعواه ، الى اعتناق مذهب العيش المر او الحلو على حساب الحكومة . فهو اليوم موظف . ونحن في عهد خليفة المسلمين ، وفي احدى هذه المقاهي التي يرتادها الناس لازجاء الوقت ، ودفع الملالة ، واستقصاء الاخبار ، وانت ترى في ركن منعزل منها عصبة جمعت الظروف افرادها على احلام المجد العربي .

ويقبل على العصبة شاب في وقار الشيوخ ، وسمت الخيرين ، قصير الشبر ، هادئ الحركة ، رزين الاشارة ، خافت الصوت ، يتحدث اليك فتحس ترفقاً وريثاً واناة . ولم يلبث أن صار واحداً من اخوان العصبة ؛ يشرب من كأسهم ، ويتحدث بحديثهم ، ويشترك في تقديس مثلهم . فاحبوه واعزوه واكرموه . وكان والد الصبي اول من بادر الى مصادقته . وليته تريث وتأنى . ولكن هذا الرجل مفتون بالصداقة ، يقدسها ويرى فيها من المعاني ما لا يراه

غيره . ولم يك ليرضى بالمودة الا كما شرعها ابو تمام :

من لي بانسان اذا اغضبته ⁂ وجهلت كان الحلم رد جوابه
واذا افتقرت الى السلاف شربت من ⁂ اخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغي للحديث بسمعه ⁂ وبقلبه ، ولعله ادرى به

وتمر الايام فاذا والد الصبي وهذا الصديق موظفـان زميلان في مصلحة واحدة ، تحت امرة رئيس واحد ، واذا الصداقة تتأكد والاخاء يزداد ، واذا هما في الليل والنهار لا يكادان يفترقان .

وتدوم هذه المودة زمناً ، على اصفى ما تكون المودات ، ثم يكفهر الجو ، ويفيق اخوان العصبة ، فاذا هم تحت المراقبة ، تترصدهم العيون ، وتمشي الشرطة المتلصصة في آثارهم . وتتأزم الحال ، ويتحرج الموقف ، وليس من يعرف مأتى هذه الغمرة الطارئة .

ويحس صاحبنا شيئاً غير طبيعي يتصل به حتى في عمله . فالرئيس اخذ يتجهم له ، واموره صارت الى التعقيد ، ثم هو اذا حدث صديقه في هذه الشؤون التافهة يشغب على الرئيس ويطعن فيه ، وينتقده ويستخف بامره ، ولكنه كان ، مع هذا كله ، يرى الوفاق والتفاهم بين الرئيس والصديق فيعجب ويحار ويغشى الشك في صدره .

ويرفع الستار ذات يوم فاذا الصديق ينقل الى الرئيس مطاعنه

فيه ، على أنها من صنع والد الصبي ، ويتصل بالشرطة تتقاضاه انباء اخوانه ، ويتقاضاها اجراً على هذا العمل الشريف !!! . وتنقطع الصلة قطعاً عنيفاً ، وينفرط عقد الاخوان ، ويسحب الزمان ذيله على ما كان من صداقات ، واتحاد في الآمال والاشواق .

وكان من امر صاحبنا والد الصبي أن زهد في عمله فتركه غير آسف عليه . واما صديقه ، فصار الى حظ سعيد ، وحمد السوق حين باع الشرف . وجاء ذات يوم الى صاحبه ، كأن لم يصنع بالامس شيئاً ، ولكن الرجل لوى بوجهه عنه ومشى يقول : لئن قامت اخلاقك هذه بدنياك ، فهي قد قمدت بضميرك وشرفك ودينك.

والآن بعد ما بلغ الصبي هذا الحد من حديثه ، فانه ليشعر بالاشفاق يملأ صدره على ابيه ، ويتخيل نفسه مصغياً اليه ، وهو يهمس متسائلا عن سر هذه الحياة التي إنما تثقل ، في الاكثر ، على الكريم يلتمس الخير ، وينشد الحق ، ويجهر بالصدق ، وتهون ، في الغالب ، على اللئيم يصطنع النفاق ، ويمشي في التجسس ، ويثري بالسرقات ، ويعيش على انين الفقراء والمساكين ، ويمن من بعد على الوطن بما قدم بين يديه !!!

• • •

- ٦ -

ويتقدم الوالد في السن ، ويركن الى الراحة ، ويعيش راضياً قانعاً بحظه ، ولكن مرارة الخيبة تعاوده احياناً ، فتنزل به الهم ، فيفر بنفسه وولده الى الريف عله ينسى ، وعل الغلام يقف على مشاهد العبر ، فهمه كان ان ينال ابنه اكبر الحظ من علم هذه الطبيعة البشرية المحيرة !.

وهذه زيارة يقوم بها للغرضين. فنحن اليوم في القرية على حدود الصحراء ، في ضيافة الشيخ علوش . وانت ترى الغلام يمرح ويطوف في البساتين والحقول ، ويصعد في الجبل ، ويشرف مع المساء على منظر بهيج ، في سهل فسيح منبسط بين الجبال ، تحتضنه لتدرأ عنه الاذى .

فالهواء ، هنا ، يهب عليلا ليناً مصفى ، يبعث النشاط ، ويوقظ الخيال . والنور ينساب متلالا ، يغمر الارض ، ويفيض على الكون ، فترتاح له النفس ، وتنشط له الروح ، والمياه تجري رائقة عذبة في هذه الجداول والاقنية ، المتعرجة بين الخمائل والمروج ، صقيلة الصفحة ، صافية الاديم ، حتى انك لترى في صقالها وصفائها ،

وسل نفسك على اديم وجهك ، وحق انها لتلهمك اسرار العصور ، وتوحي اليك بمعاني البراءة والطهر ، وتطلق لسانك بالتسبيح.

شهد الغلام هذا المنظر في موقفه ذاك ، كما شهد اقبال المساء : فاذا الظلال تمشي على الارض ، في الطليعة من مواكب العشي ، فتغشاك السنة رقيقة تمتد وتتطاول في رفق وريث ، ثم ها هي ذي المواكب تطل وتتقدم في امواج دكناء قاتمة ، فلا تلبث ان تحول الى طبقات بعضها فوق بعض ، فتراها تتكاثف وتترامى وتنبسط في شيء من المبادرة ، وشيء من الهجوم والمباغتة ، فاذا الظلمة تقبل حالكة ثقيلة صفيقة ، تلف كل كائن ، وتطمس كل لون ، وتلاشي كل بارز ، وتغمر الافق فيفيض الهدوء ، ويسود الصمت ، وتسكن الطيور الى اوكارها ، وتنام الحياه ، إلا اضواء النجوم في الآفاق السحيقة ، والا هذه الاصوات المريضة ، تنبعث الفينة بعد الفينة ، عواء ترسله الكلاب حول مضارب البدو ، المنبثة في السهول وعلى ذيول الجبال ، والا هذا التجاوب النحيف من بنات آوي ، وهذا النقيق الملحاح من الضفادع ؛ والا هذا الخرير الانيس من مياه رأس العين .

لف الليل صاحبنا ، وهو يفكر في ابيه هذا الذي فر به وبنفسه

من المدينة الى هذه القرية ، متعباً مكدوداً خائر النفس ، يلتمس الهدوء والراحة ، فلقد اجهد نفسه عاملا ، واحس اوجاع الناس مشفقاً ومواسياً ، واحسن الظن ، وصدق العهد ، ولـكنه عاد بالخيبة حين شهد هذه الاخلاق المعقدة في خبث ومـكر ، وهذه العقول الملتوية في غرور وكبرياء ، وهذه النفوس التي لا تعرف الخير ، ولا تطلبه الا لذواتها ، والتي تمارس النفاق ممـارسة سهلة ليس فيها عسر ولا مشقة .

فكر الصبي في هذا كله ، وفكر فيما عساه يرى في ضيافة الشيخ علوش ، كما فكر في هـذا الاسم المضحك . وكانت الريح قـد أخذت تعصف زافرة انفاس العشاء الباردة ، فلم يملك من نفسه الا ان يكر راجعاً الى حيث كان ابوه ، فيلقاه منفرداً يردد اغنية الظلام هـذه :

ياظلام الليل ، عسعس ، أنت انسي
فيك ياسجن الورى ، اخلو بنفسي
فاجوب الافق تحليقاً بهجسي
وارود الغيب منسابا بحسي
فيك ، ياليل ، ارتدادي نحو قدسي

فيك ، ياليل ، انطلاق من قيود

صاغها الانسان ظلماً من حديد

ودعاها العرف آداب الرشيد

وارتضاها ان تداجي بالسجود

آية التقديس ، آبت آي رجس

انت مثل الحق ، غيب في البرية

مجهل الآثام ، والنجوى الخفية

سافراً ، ياليل قف ، تعرى السجية

من كساها ، علها تغدو حيية

أنت ، ياديجور ، حقاً ثوب قس

ويستسلم صاحبنا الى النوم في ليلته تلك ، وهو يفكر فيما سمع من ابيه .

واصبح الصباح ، فاذا القوم يتوافدون ، على عادة الناس في الريف ، للسلام على الضيف ، ويأخذون في الحديث ، ويفيضون فيه خالياً من القصد والتفكير ، ولكنك وأنت تستمع اليهم ، تلمح احياناً ومضات لامعة من الذكاء . ولا يفوتك الشيخ فتراه يروح ويجيء مرحباً محتفلا ، باشاً طلقاً ، خفيف الحركه ، رشيق

الاشارة على تقدم سنه . يحدثك فيحسن الحديث ، ويرحب فيجيد الترحيب ، ويسوق هذا وذاك الوانا طريفة تروقك وتسرك ؛ وان كنت لا تجد للقلب صوتاً ، ولا للصدق نبرة فيما استمعت من الرجل. وانت ان تأملت وفكرت فيه ، احسست انك في حضرة ممثل بارع ، أو أمام رجل الساعة بالمعنى الذي يعرفه الناس في ايامنا ...

ويعلم الصبي بعد ان كبرت سنه ، وزادت بالناس معرفته ، ان شيخنا زار الآستانة ، ولم يلبث الا قليلا ثم عاد قاضياً محترماً ، فتسنى له ان يجمع ، في ظل منصبه هذا ، ثروة ليس من يعلم أجاءته من باب الاقتصاد والشح ، أم من هذا السبيل الذي يعيش عليه بعض القضاة ، ويعاني منه الحق ما يعاني ، وأي من الناس لا يخرج عن شيء من ماله ، حين لا يعرف الى النجاة سبيلا غير هذا السبيل ؟ ثم أي منهم يستطيع ان يفتح فاه ، أو ان يومض الى شيء مما اعطى ، وهو يعلم بعقاب القانون ؟ . ولعلك لا تبعد عن الصواب كثيراً ، ان ذهبت الى ان معاقبة الراشي - وان كان لها ما يبررها عند المشترعين - لا تخلو في الواقع ، من معنى الحصانة ، للقضاة العابثين بالحقوق . ولكن هذا لا يعنينا الآن كثيراً ؛ فنحن نعرف ان لا قبل للكثيرين بالنزاهة ، ولا المشترعين بالاحاطة ؛ واذن

فالخير لنا ان نعود الى ما كنا في صدده .

ويأخذ الغلام منذ ضحى يومه ذاك في التطواف في القرية ، فيتعرف الى بعض اهلها ، ويستمع اليهم متحدثين ، ويرى الفرق الكبير بين العيش في المدينة والعيش في القرية ؛ فهذه حجرات قلما دخلها الهواء والنور والشمس ، وقلما عرفت النظافة أو الترتيب ، وهذه امتعة خلقة ، واسمال بالية ، وهذه آنية قذرة ملقاة هنا وهناك ، وهذه حيوانات تعيش مع الناس في مساكن واحدة ، وهذا جهل فاش ، وفقر حزين ، وعرق متصبب ، وجهد متواصل على غير طائل .

واليوم وهو يستعرض حياة القرية في مخيلته ، يتمنى لو عجل الزمان ، فبلغ بالوعي في قومه ، ان يروا من العار عليهم أن يجد الواجد عندهم ، مثل هذه الفروق العظيمة بين المدينة والقرية . فانت ان رأيت عند الامم السباقة فرقاً بين المدينة والريف ، فلست تراه الا في هذا الترف والنعيم ؛ وليس في النظافة ووسائل الحياة الضرورية .

ويعرف الصبي من اهل القرية ، أنهم يتوقعون زيارة حاكم المدينة في الغد اذا اصبح الصباح ، ليتفقد في عرف المنطق الرسمي

شؤونهم ، ويشهد احوالهم ، وينظر في مصالحهم ، ويوفر عليهم من خير الحكومة ما يعينهم على حياتهم ؛ اما في الواقع فلينال حظه من التعظيم ، وحظه من الترويح عن النفس ، وليسمع الثناء ويصغى الى الاقرار بأياديه الحسنى ، ثم هو لا يتعفف عن خيل وابل تهدى اليه واشياء غير هذه وتلك .

عاد صاحبنا الى بيت الشيخ فرآه آخذاً في الاستعداد لاستقبال الحاكم ، ولكنه دهش حين سمعه يعدد من مساوئه وعيوبه ما لا يجري على اللسان . والى جانب هذا وذاك وجده لم يغفل عن كلمة يعدها للترحيب بالزائر الكريم .

وما ذكر الغلام هذا الذي كان الشيخ فيه ، الا اغرق في الضحك ، لا يملك نفسه ان لا يفعل ؛ فهذا صوته المريض لا يزال يردد ما اعد وزور من هذا الكلام المنافق ، واكبر الظن انك تشارك صاحبنا في الضحك حين تسمع الشيخ يتمرن على القاء هذه العبارات :

« ياصاحب السعادة ، ياولي النعم !

لقد اراد الله لنا الخير بولايتكم . فحلت البركات ، وازدادت الخيرات ، وأورقت الصخرات ... ، وساد الرخاء ، وازدهر

البلد بالعمران . جزاكم الله خير الجزاء ، وادام علينا ظلكم ، وامد في حياتكم »

ولم يقف الشيخ عند هذا الاستعداد ، وكيف يقف عنده ، وهذه فرصة للغنيمة ، وهو قناص ، وليس عليه الا ان يقول للقوم : هذا الحاكم رفيع القدر ، علي الجناب ، ولا بد من المزيد من الاكرام ، والمزيد من الاحتفاء ، والمزيد من النفقة . فيبادرون الى المعونة والمساهمة .

وتم للشيخ ما اراد ، فقد جاءه المزيد من المال والمزيد من الضأن ، وصار الى هدوء البال حين كملت الأهبة ، ولم يبق الا ان تكتحل العيون بلقاء هذا الذي يسمونه جلال بك . ويأتي الغد فترى القرية وقفت للاستقبال ، وصاحبنا الشيخ في الطليعة ، ولو انك رزقت علم ما في السرائر لما وقعت على عاطفة حب ، او شعور احترام لهذا الحاكم ؛ ولكن الناس سيقوا الى الاستقبال فانساقوا ، ودفعوا الى المساهمة في نفقة الضيافة فساهموا على فقر وحاجة .

وتمتد الابصار في موقف الاستقبال ، فاذا الخيل تطل ، والركب يهل ، فيمشي الحفل في ركاب القادم الكبير الى بيت الشيخ . وانت تنظر فتجد حاكما طويل القامة ، عريض المنكب ، بارز الكرش

ضخم الكلكل ، يتكفأ في مشيته وهو مقبل عليك ، كما لو كان يقتلع رجليه اقتلاعاً ، او يمشي على ارض رخاخ ، فتقف منه امام هذه الضخامة القلقة تطالعك بانطوائها على كثير من الصلف والزهو ، فلا تكاد تملك نفسك من ان تبتسم في سخرية . ثم تستمع اليه يتحدث ، فاذا هو يتشدق ويتفاصح ، ويلقي طائفة من هذه الكلمات التي اتسعت لها اللغة التركية ، ولم تتسع لها الاذواق والالسنة ، فتقف فيهتبل الفرصة ، ويدلي اليك بعلمه الواسع ، وعرفانه الذي لا ضريع له فيما يظن هو نفسه .

ويصل الموكب الى البيت ، ويقف الشيخ ، فيجيد الترحيب ، ويفتن فى القاء ما كان قد اعد من كلام المنافقين ؛ فيطرب الحاكم ويتهلل وجهه بشراً ، فهو ولي النعم حقاً ، ومناط الرجاء حقاً ، والناس اتباع له وعبيد .

وجاء دور القوم من جماعة الشيخ ، فائتموا به وكالوا المدح جزافاً ، والنفاق كيلا وافياً ، واظهروا الخضوع ، واعترفوا بالعبودية ، ولو انك رأيتهم وهم يتبارون في تحقير انفسهم ، لتندى جبينك خجلا ، ولهانت الدنيا عليك ، وانت تشهد الصغار يرضى به الناس ، كأن نفوسهم هانت ورخصت ، أو كأن هذا النفاق

الطارئ صار سجية لئيمة في معظم الناس .

شهد الغلام حفلة النفاق هذه ، ولا يزال يذكرها على طول ما مر عليه من الاعوام ، ويشاهد روايتها تتكرر على مسرح الزمان. واغلب القوم لهم فيها ادوار .

وبعد افلا تعذر صاحبك ، اذا تساءل اليوم عن السبيل الى تطهير النفوس من هذا الذي نحن فيه ؟ فانه لطويل الحزن. وسيظل طويله الى ان يجد الجواب عن سؤاله هذا ، ان قيض له أن يعيش الى ذلك اليوم حين يكون اعطاء الجواب ميسوراً للكثرة منا . فهو وان كان طويل الحزن ، الا انه طويل الامل ، وشديد الايمان بالعودة الى مثل اليوم الذي قيل فيه لعمر رضي الله عنه ، لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه . ذلك يوم الكرامة حين حطم الناس فيه رؤوس الاصنام .

ويذكر الصبي خلة من الضيف ، فقد كان اذا انس من مضيفه غفلة ، اخرج له لسانه ، سخراً منه واستهانة بأمره ، وهزءاً به ، كما كان احياناً اذا اقبل عليه مقبل من بعيد ، اخذ ينتقد مشيته ، أو لحيته ، أو قيافته أو أي شيء آخر يرد على خاطره. ثم حين يقترب المقبل كنت ترى الحاكم يحتفي به ويظهر عطفه عليه ، فكان الناس

يدهشون من هذا ، ويبتسمون آسفين .

وتنتهي الزيارة في يومنا ذاك ، ويشيع الحاكم بالتعظيم كما استقبل بالتعظيم ، ولكن الصبي يذكر جيداً ، انه لم يسمع منه سؤالا عن مظلوم . ولا شاهد منه أخذاً بيد منكوب ، او اكتراثاً باي من هذه الامور التي يهتم بها الحاكم الساهر المنشئ الباني . ومنذ يومه ذاك ، شاه وجه الدنيا في نظره ، اذ عرف أن من الحكام والرؤساء من يعيش ويترف في العيش على حساب العرق المتصبب من الاجسام المنهوكة ، والادمع الجارية من عيون الفقراء والمساكين ، وان ادعاء السهر على المصالح العامة ، هو الوسيلة الخبيثة لتخدير الاعصاب .

ويعود الشيخ الى بيته من وداع الحاكم ، فاذا هو غانم ظافر ، فقد اكد صلته بولي الامر ، وزاد نشبه بهذا المال الذي نكب به اهل قريته ، وعلا قدره عند نفسه ، بما قال رياء وكذباً ، وما قيل له سخرية وتندراً . ولعلك تبتسم او لعلك تعجب اشد العجب حين تعلم بان هذا الرجل قد اعتاد ان يضحك مع الضاحكين ، وان يبكي مع الباكين ، وان يصادقك وهو لا يحبك . ويتزلف اليك وفي نفسه منك اشياء . وربما فكرت واطلت التفكير اذ تسمعه ينشد احياناً قول الشاعر :

ألبس حياتك احوال المحيط وكن ... كالماء يلبس ما للظرف من جدر
وإن ابيت فلا تجزع وأنت بها ... عار من الأنس كاس من الضجر

هذا هو الشيخ علوش ، وهذا فنه في الحياة . ولكن ما هو رأي والد الصبي ؟ . فنحن لا نعرف انه لقن ابنه يوماً شيئاً من الرأي وقصاراه ان يضع يده على ملامس العبر ودواعي التفكير ، وموقظات الوعي . ولكن صاحبنا ادرك مذهب ابيه ، حين سمعه ينشد هذه الابيات ، بينما كانا قافلين الى المدينة :

لما رأوا دنيا الزمان لعابث ... مستهتر أو مكثر لنفاق
اخذوا علي ترفعي بنقيبتي ... عن كل ما يأتي على اخلاقي
دنيا الزمان ، مغانم ومرافق ... تفنى ، ودنيا الخلق مجد باق

...

الآن وقد انتهى صاحبنا الى هذا المدى من حديث ابيه ، يقف هنيهة ليعترف بانه اقتصر في العرض على ما ظنه خلقاً طيباً ، او حسبه عظة حسنة ، في جميع ما اتصل بابيه وامه من هذه الذكريات ، وهو يدرك ان لا كمال لانسان في دنيا الناس هذه ، وان البون كثيراً ما يكون شاسعاً بين المثل العليا والطبيعة البشرية الغالبة .

• • •

- ٧ -

« وهذا طور ثان للصبي ، هو طوره في المدرسة . والمدرسة عنده ، هي الشيخ عياض استاذ النحو ثم كتاب « المشذب » .

اما الشيخ ، فهو ناهض القامة ، جهوري الصوت ، عصبي المزاج ، كأنه بجملته من رأسه الى اخمص قدميه ، جهاز للاحساس المرهف الناعم ، وكأن هذا الجهاز موصول على الدوام بتيار كهربائي ، فهو يتأثر ويهتز حتى من اللمس الرفيق .

واما « المشذب » فهو تركي اللغة ، وان كان في النحو العربي . وليس في هذا ما يدعو الى العجب والاستغراب ، فهو سبيل الاستعمار يضعفك وفي لغتك ان استطاع .

ولو ان الامر وقف عند لغة الكتاب ، لهان الخطب ، ولكن استاذ النحو هذا ، كان لا يفكر في ان يشرح الدرس لتلاميذه ، وقصاراه ان يستظهروا متن « المشذب » ، على اجزاء ينجمها ويفرضها عليهم كما يشاء وحين يشاء ، فانت تراه حين يأزف موعد الدرس ، يقبل على الصف بقامته الناهضة ، وفي جبته الفضفاضة ، وبعمامته

المكورة ، فيستوي على منصته . ولا بد من ان يصعد بصره في التلاميذ ، وان يجول به في اقطارهم جميعاً لحظة أو لحظات ، ثم يفيء الى نفسه ، فيفتتح الدرس بدعوة تلميذ الى تلاوة ما حفظ عن ظهر قلب ، فينهض سامعاً مطيعاً ، ولكنه لا يفتح فاه تالياً ، حتى يغمض الشيخ عينيه مهوماً.

ولعلك تضحك ، أو لعلك تأسى ، اذ يقص عليك الغلام أنه صرف عاماً كاملا ، وهو يعيد على شيخه موضوعاً واحداً من هذا « المشذب » فلقد استظهره في بداية العام الدراسي ، على ضجر وكره منه ، وراح يتلوه ، كل درس ، هاضباً متدفقاً ، والشيخ لا يفطن لهذا التكرار ، فما كان يكرثه أن يتعلم التلاميذ ، وانما كان همه أن يدلف الى غرفة الصف في مواعيد الدرس ، وان يتناول جعله نهاية الشهر .

والى جانب هذه الخطة النابغة في التدريس ، كان اذا غضب ، نثر من فحش القول قذائف محرقة ، هدفها الصلة الجنسية ، لا تتعداها الى اي شيء آخر ، فكأن هذه الصلة مركزة في قرارة نفسه . وليس من الغريب ان يقف عندها ، فقد رأى الخير على وجهها الكريم ، ومن سبيلها تسرب الى قلب حاكم المدينة . فكان

يحضر مجلسه ، لا يشارك في ادب رفيع ، او علم مفيد ، أو سياسة صالحة نافعة . وانما ليردد ما حفظ من تلك الابيات ذات العلاقه القريبة او البعيدة بالشهوات الجنسية ، كالذي قال النابغة الذبياني في المتجردة زوج النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، والذي قال ابن الرومي في جاريته السوداء ، والذي قال بشار الاعمى في عبثه ومجونه ، والذي قال الفضل بن قدامة فيما لا نعرف . ونحن نقتصر على قول الاخير ، فنورده ، للتفكهة ، مثالا لهذا اللون من الشعر الماجن :

كأن تحت درعها المنعط
اذا بدا منها الذي تغطي
شطا رميت فوق شط
ضخم القذال حسن المخط
كأنه قط على مقط
كهامة الشيخ اليماني الثط
لم يعل في البطن ولم ينحط

هذا هو الشيخ ، معلم النحو العربي . وليس من الغريب ان تعلم من بعد ، بأنه كان مرهوب الجانب في المدرسة ، يخشاه التلاميذ ، ويصانعه الاساتذة ، من اجل شغبه وبذاءة لسانه ،

ثم من اجل صلته الوثيقة بالحاكم ، وحظوته عنده ، وايثاره اياه.

ولكن الحداثة ، اللاعبة الجريئة ، لا تعرف النوازع الكظيمة ، فهي تتحدى الشيخ حيناً ، وتعابثه احياناً ، وتصفر له في غفلته أو في تهويمه . وحينئذ تسمعه يجهر بالسباب الفاجر ، وتعلو الضجة ، وتعم الفوضى ، فيأتي المدير ، ليعاقب من يعاقب فاذا عاد السكون والهدوء ، عاد للشيخ سلطانه .

كانت غرفة الصف فسيحة ، وكان قسم منها للصلاة . فاذا جاء وقتها ، بسطت الحصر على الارض ، فاقيمت عليها الصلاة . ثم تلم وتطوى وتوضع لفائف مسندة الى الجدار في زاوية من الغرفة . ويقوم في خيال تلميذ ، أن يلف نفسه باحدى هذه الحصر . ثم هو يمضي الى عبثه ذاك من فوره . ويقتدي به التلاميذ . واذا المقاعد خالية ، وحصر المسجد مشغولة ، والقاعة خلاء في العين.

ويقبل الشيخ على الصف ، فيدهش حين لا يرى احداً. ويأخذ في التسبيح بصوته الخشن العريض دهشاً واستغرابا ، ولكنه يسمع صوت ضحك مكظوم مكبوت ، فيفطن الى عبث الحداثة ، ويشرع فيما اعتاد من قبيح القول وبذيء النعوت وطريفها ، وتجد عصاه سبيلها الى اجسام التلاميذ ، فيقع بعضهم فوق بعض ، فيما يحاولون

النجاة من عصا الشيخ ، والافلات من هذه الحصر اللعينة. ويأتي المدير على ما قام من الصخب والضجيج بين شيخنا وتلاميذه ، فيعيد الهدوء.

وتمضي ايام فيزداد الشيخ بذاءة وفحشاً ، وتلاميذه تنكراً ، كما يزداد هؤلاء تحرشاً وتحدياً وعناداً . وذات يوم يأتمرون فيما بينهم ، فاذا جاء شيخهم ، وقر قراره في منصته ، وابتدأ الدرس واخذ تلميذ في تلاوة ما هو مفهوم ، أو غير مفهوم من هذا (المشذب) التركي ؛ اذا اخذ في هذه التلاوة ، واغمض الشيخ عينيه ، وراح في نومه الخفيف ، عمد خبيث منهم الى حبل متصل بكرة في سقف الغرفة ، واذا هو يوصل الحبل بعمامة الشيخ في ريث وسكينة ، ثم يجذبه في أناة ، فاذا العمامة ترتفع الى السقف . ويهب النسيم عليلا خصراً ، فيداعب الصلعة الملساء ، فيشعر الشيخ بالخصر ، ويحس في رأسه خفة ليس له بها عهد من قبل ، فيفيء الى وعيه ، وترتفع يده الى مكان العمامة ، فاذا هي على ام رأسه ، لا يفصل بينهما ما كان يفصل دائماً ، ويفتح عينيه في شيء من المبادرة والدهشة ، فيرى عمامته في الصميم من السقف ، تترنح مشنوقة في الهواء ، ويفيق من دهشته على اصوات التلاميذ المخنوقة ، فقد

كانوا في غمرة من الضحك الساخر ، وشدة من الخوف البالغ من شيئين : لسان الشيخ ؛ وعصاه .

وينهض الشيخ من مجلسه هادئ الركن ، ظاهر الاناة ، فيعمد الى جبته الفضفاضة فيخلعها ، ثم يمثل فصلا نسدل عليه الستار . وحسبك ان تعلم بان صوته ارتفع وامتد الى اعلا ما ارتفع ويمتد اليه الصوت الجهير ، بما لا يسعك برضاك ان تصغي اليه ، من فاحش القول ، وشنيع الكلام . وتأخذ الصبيان حالة من حالات الاستهتار بالتبعات فينطلقون ضاحكين ، مصفقين ، مصفرين ، ويخرج الاساتذة والتلاميذ الآخرون من صفوفهم ، والمدير من حجرته على هذه القيامة القائمة ، والضجة الصارخة الصاخبة ، فاذا هم امام مشهد فذ في بابه ، عجيب غريب في وقوعه .

ويجري التحقيق على الفور ، ويطرد التلميذ البادئ بالعبث ، ويطلع الحاكم على الحادث . ولا يمر وقت طويل حتى يكون الشيخ في في منصب رفيع السنام ، عريض الجاه . فيزدلف اليه الناس ويطوفون ببابه لنوال بركاته وصالح دعواته ، وعزيز رضاه .

اما المدرسة فقد حرمت من علمه وفضله وادبه ! ! ! ، وان كانت قد وجدت ، من بعده ما كانت في اشد الافتقار اليه من الهدوء والسكينة ، ولا عليك ان قلت وجدت كثيراً من النجاح .

- ٨ -

وللمدرسة عند صاحبنا ذكريات أخرى ، ولكنها جميلة عطرة ، يطيب فيها الحديث ولا ينسى . وكيف ينسى حديث استاذه في الادب والاخلاق . فلقد كان جمال الدين بك مثلا اعلى في عفة لسانه ، وطهارة اخلاقه ، وحرصه على افادة تلاميذه . ولا يزال الصبي يذكر اقبال هذا الاستاذ على الدرس باشاً متطلقاً ، يتناول موضوعه من اهون نواحيه ، في مساق هو الى حديث الاصدقاء ، اقرب منه إلى القاء الاساتذة ، وتقرير المعلمين .

ويعلم الله ، انه على طول ما مر بمحدثنا من السنين منذ ايام دراسته الاولى ، وعلى كثرة ما خبر من الناس ، ما انفك يرى في استاذ الادب والاخلاق ارفع النماذج لمن يحب ان يقبس منه ، كما كان ولا يزال يرى في معلم النحو ذلك الشيخ العجيب ، الانموذج الوضيع لمن يحب ان يرغب عنه .

كان جمال الدين بك ، فيما يعتقد الصبي ، مثالا للفطنة والاعتدال ؛ يدنو من المجتمع ولكن على قدر ما تسوقه اليه مهام عمله ، وتكاليف

عيشه ، ثم يقف عند حده ذاك ولا يزيد . وكان لا يرى الطبيعة البشرية خيراً كلها ، ولا شراً كلها ، فللخير فيها نصيب ، وللشر فيها نصيب يتذبذب بين الطيبة والرداءة . وله بعد هذا الرأي وثبة الى الناحية العملية فقد كان يقول : لا بد من قبول الناس على هـذا الشكل ، اذا اراد الانسان ان لا يتعاقب أسفه ، ويعظم اساه ، حين يخيب ظنه ، ويخطئ تقديره ، وتخسر مودته .

ولفن الحياة نصيب من تفكير الاستاذ ووثبات ذهنه . فانت تدرك هذا حين تسمعه يقول في بعض دروسه : « اذا عقك اصحابك ، أو انكرتك جماعتك ، أو جهلك معشرك على غير حق . فلا تجهد نفسك في التحسر على حظك ، ونشدانه ثانية عند من عقك أو انكرك أو جهلك . فخير لك وأجمل بك ، وابقى لـكرامتك ، وأنت على حالك تلك ، أن تأخذ مكانك مستقلا ، ولـكن على أن لا تبقى باهلا تنظر من بعيد ، بل تعمل لنفسك ما يكرمهـا ويغنيها من جديد » .

ويذكر الصبي لاستاذه ، تعليقاً من لون آخر على الحياة . فقد كان في بعض دروسه يقول : « حين يكون نصيب الشر هو الغالب في تركيب الطبع البشري ، فانك تجد بين الناس ، من ينساق بطبعه ،

والهـام نفسه الى أن يسلك السبيل الى الرزق ، بالنفـاق والملق ، فيظل ينفق من ضميره حتى يغيض معينه ، وتتسـاوى عنده القيم والاوزان . وهو اذ يبلغ به الامر ، هذا الحد من الانفاق والبذل ، يموت الرجاء في صلاحه ، حتى ولو جاز لك فقطعت لسانه .

« وتقع كذلك بين الناس على من لا يرى بين يديه من وسائل الحياة ، الا أن يخدعك ، ويغرر بك ، فيسرقك ويسلبك ما وصلت اليه يده منك ، أو يؤذيك بالتجسس والكيد أو النميمة . وهو إذ يألف هذا ، ويدرج عليه . ويعرق فيه لا يكون لك ثمة مندوحة أو ذريعة الى رده الى الامانة ، او الى الشرف ، حتى ولو كان لك السلطان عليه فقطعت يده » .

ولن يكون الحديث الذي نحن فيه صادقاً ، ولا هذه الذكرى تامة ، فيما يعتقد صاحبنا الصبي ، الا اذا عرض لموضوع طريف تناوله الاستاذ ، ذات يوم ، حين تحدث الى تلاميذه في المرح والترح ، أو البشر والوجوم . فلقد كان الكلام يومئذ موصولا بهذه الاطوار التي تتعاقب على النفس الانسانية الواناً مختلفة في دورات متتالية ، فتنقلها من الغبطة الى الحزن ، أياماً أو اسابيع أو لحظات ، ثم من الحزن الى الغبطة ، أياماً او اسابيع او لحظات ، دون ان يعرف لهـا

سبباً واضحاً ، او مأتي بيناً .

واليك ما قال الاستاذ في درسه ذاك : « من يرقب تقلبات الحس عنده ، وعند غيره من الناس ، يخرج أدنى الى الاقتناع بان الانسان في حياته محكوم عليه بان يحيا تحت سلطان الوان من العواطف . فآنا يصحو على شعور غامض يختلج في الصدر ، ولا سبيل معه الى الراحة والرضا ، فيزعجه في حاله تلك أتفه الاشياء ، ويقلقه ايسر الامور ، ويتأفف حتى من أعز الناس عليه ، والصقهم بقلبه ، ولا يرى في محيا الحياة بشراً ، ولا في وجوه الاشياء صباحة ، بل يقع منها على صور شاحبة كدرة لا تروقه ولا يرتضيها ، فتسوء ظنونه في دنياه ، ويثقل عليه ظلها . وآونة يجد نفسه قد افاق على حال من الشعور ، هي ضد ما كان عليه من قبل ، فاذا كدره الى صفاء ، وترحه الى مرح ، ووجومه الى اشراق وغبطة ، وانقباض اساريره الى طلاقة وسماحة ، فيحس مسرات الحياة ومباهج الدنيا ، وينعم بها ، ويؤمن بوجودها ، ويجد بين الناس خلقاء كثيرين لمودته ، واهلا لان يأنس بهم ، ويسعد بقربهم وصداقتهم . وحين تعرض له مشكلة من مشاكل الحياة يعالجها بالحسنى ، ويبادرها بالحيلة ، ويتولاها بالرفق ، وهكذا تمر به الايام مرحاً طروباً ، ناعماً بالحياة

مغتبطاً بها ، الى ان يأتي دور الترح والوجوم في الحال المعكسية من انفعاله الشعوري .

« كل انسان تمر به هذه الاطوار النفسية متعاقبة ، تتراوح جيئة وذهوباً في فترات لا تكاد تفطن اليها . ويغلب على الظن أن ليس لها كبير الأثر في نجاحنا ، أو اخفاقنا في الحياة ، او فيما يواجهنا من ظروف موانية أو غير موانية ، وانها تبدأ بخاطر عابر يرد على البال ، أو بالهام يهتف به القلب ، أو ذكرى تعود الى الذاكرة »

ولكن ما هي فائدة ما نحن فيه من الحديث ؟، ثم ما هو مأتى هذا الشعور الثنائي ؟ . ويجيبنا الاستاذ في درسه ذاك فيقول :

« وأنت اذا علمت بكنه ما يتداولك من الشعور بالمرح والفرح تارة ، وبالحزن والوجوم اخرى ، امكنك ان تسوس نفسك وتراقبها . وامكنك كذلك ان تعلل ما تجد من انقباض الآخرين ، على ضوء علمك هذا ، فتقضي بذلك على كثير من اسباب الجفاء ، وبواعث القطيعة بينك وبين الناس ، وتنقشع عن سماء دنياك تلك السحب التي طالما قضت على الصفاء بين ذوي القربى ، وعلى المودة بين الاصدقاء » .

ويأتي الاستاذ الى السؤآل الثاني فيقول :

« لم يصل العلم بعد الى سر هذه المشاعر ، والخوالج النفسية ، فهي في غيب عنه لا يعرف على التحقيق ، كيف تتأتى وتنشأ وتتفاعل. ولكن العقل يتلمس طريقه في المجاهل احياناً ، على نور الفروض كما افترض الأثير ، لتعليل بعض الظواهر الطبيعية. وانت اذا تنظرت ما تلمس ، وتدبرت ما تحس وتعقل ، وجدت دنيا الكون هذه ، قائمة على التضاد الثنائي ، ففي بناء الذرة تجد الشحنة الكهربائية السالبة تقف في وجه الشحنة الموجبة ، وفي مظاهر الكون الاخرى ، تجد السكون يقف في وجه الحركة ، والموت في وجه الحياة . وتجد الحرارة والبرودة ، والبحر والبر ، والمد والجزر ، والربيع والخريف ، والحرية والعبودية ، والوحدة والتنوع ، والغنى والفقر والشقاء والسعادة ، الى ما لا يحصى من ثنائيات الحياة ، أو على الاصح ، ثنائيات الوجود.

« والانسان في تركيب طبائعه ، لا يخرج عن ناموس هذه الثنائيات المتعاكسة ، فهو يحب ويبغض ، ويرضى ويغضب ، ويفرح ويحزن ، ويسعد ويشقى ، متأثراً حيناً بعوامل خارجية ، وحيناً بما في باطنه من تفاعل كيميائي تنهض به بعض الغدد بما تفرز من هذه السوائل (الاتوار) التي يظن بعض العلماء ، انها تؤثر على

سلوكنا وتصرفاتنا ، وتتحكم في شخصياتنا ، وتحدث ما يتداولنا من الوان العواطف ، وضروب الحس .

« فاذا انتهيت من هذا الشوط النظري ، امكنك أن تفسر شعورك بالفرح ، ثم ارتدادك الى الترح ، من فعل جزء من جهازك العصبي ، أو ان تفرض هذين الشعورين من عمل غدتين ، تنشط احداهما فتكون لها الغلبة ، فيظل أثرها سائداً غالباً الى ان تهن طاقتها ويفتر جهدها ، فتكل وتعجز عن النشاط ، وحينذاك يبدأ عمل الثانية المستجمة ، فيغدو لها السلطان على النفس ، تتأثر بها ، وتتجه بتوجيهها ، وتشعر بما تفيض عليها . وهكذا دواليك على دورات متعاقبة ، وربما صح لك ان تسميها « نوبات المرح والترح » .

ويفيض الاستاذ في الحديث فيقول : « فطن ابو محمد علي بن احمد ابن سعيد بن حزم الفيلسوف العربي الاندلسي ، الى شيء قريب من هذا الذي نخوض فيه من بحث الانفعال النفسي ، فاورد في رسالته المسماة (في مداواة النفوس وتهذيب الاخلاق) :

« واعلم بانك ان تعلمت كيفية تركيب الطبائع ، وتوليد الاخلاق ، من امتزاج عناصرها المحمولة في النفس ، فستقف من

ذلك وقوف اليقين على ان فضائلك لا خصلة لك فيها ، وانها منح من الله تعالى ، لو منحها غيرك لكان مثلك ، وانك لو وكلت الى نفسك ، لعجزت وهلكت فاجعل بدل عجبك بها شكراً لواهبك اياها ، واشفاقاً من زوالها . فقد تتغير الاخلاق الحميدة بالمرض وبالفقر وبالغضب وبالهرم .

« ولقد اصابتني علة شديدة ، ولدت علي ربواً في الطحال شديداً ، فولد ذلك علي من الضجر وضيق الخلق ، وقلة الصبر والنزق ، امراً جاشت نفسي فيه ، اذ انكرت تبدل خلقي ، واشتد عجبي من مفارقتي لطبعي ، وصح عندي أن الطحال موضع الفرح اذا فسد تولد ضده » .

وعلق الاستاذ على هذا الذي نقل الى تلاميذه من كلام ابن حزم فقال :

« ولا يخرج هذا الرأي عن الحدس والافتراض . ولكنه مقبول من وجهة التفسير ، وان كان العلم لا يقبل اليوم ، الا ما صح بالتجربة والفحص والمشاهدة » .

انتهى الدرس وخرج الاستاذ من غرفة الصف ، كما خرج التلاميذ الى حديقة المدرسة ، ولكن افكارهم كانت لا تزال تعمل ، فقد

حركها الاستاذ ونقلها بحديثه ذاك الى افق جديد . وجدير بكل جهد يحرك افكارك ، وينقلك الى افق جديد ، ان يظل له الاثر الدائم المستقر في حياتك .



- ٩ -

وينتقل الاستاذ في درس آخر ، الى الكلام على المعارك النفسية ، فيفتتح الحديث فيقول :

تتفاوت العواطف في اشواقهـا وجهادها ، وفي قوة شكيمتهـا ودرجة صلابتها والحاحها . وحين تتعـارك وتتلاحم ، فان الغلب انما يكون للعاطفة الراسخة ذات الغور البعيد ، وقد يتدخل العقل ، ولـكنه قلما رجح بالميزان ، بل انت تراه ، ولعلك تعجب حين تراه ، وهو مغلوب على امره ، يتحرى المبررات والمعاذير للعاطفة الغـالبة .

ويثب الاستاذ ، من بعد ، الى التاريخ ، ليقع على العظة ، ويجد المثال للتطبيق فى هذه القصة :

« لمـا قدم مصعب بن الزبير ، بوجوه اهل العراق على اخيه عبدالله بن الزبير ، فلم يعطهم شيئاً ، ابغضوه ، وكاتبوا عبدالملك بن مروان ، فخرج يريد مصعباً ، فلما اخذ في جهازه ، اقبلت زوجه عاتكة بنت يزيد بن معاوية في جواريها ، وقد تزينت فقالت

له : « لو قعدت في ظلال ملكك ، ووجهت اليه كلباً من كلابك ، لكفاك امره » . فقال : هيهات ! اما سمعت قول الاول :

قوم اذا ما غزوا شدوا مآزرهم
دون النساء ولو باتت بأطهار

فلما ابى عليها ، بكت وبكى معها جواريها ، فقال عبد الملك : قاتل الله كثيراً ! والله لكأنه يراني ويراك يا عاتكة حيث يقول :

اذا ما اراد الغزو لم تثن همه
حصان عليها عقد در يزينها
نهته ، فلما لم ير النهى عاقه
بكت ، فبكي ، مما شجاها ، قطينها

ثم خرج يريد مصعباً ، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل ، قام عمرو بن سعيد الاشدق وخالف عليه ،فقيل له ما تصنع ، أتريد العراق وتدع دمشق ؛ ان اهل الشام اشد عليك من اهل العراق . فرجع مكانه فحاصر اهل دمشق حتى صالح عمراً بن سعيد على انه الخليفة من بعده ، وان له مع كل عامل عاملا ، ففتح له دمشق .

وذات يوم ارسل عبد الملك الى عمرو بن سعيد أن ائتني ابا امية حتى ادبر معك اموراً ، فقالت له امرأته : يا أبا امية لا تذهب اليه

فاني اخوف عليك منه ، فقال عمرو والله لو كنت نائماً ما ايقظني .
قالت : والله ما آمنه عليك ، واني لأجد ريح دم مسفوح ، فما
زالت به حتى ضربها بقائم سيفه ، فشجها ، فخرج وخرج معه
اربعة آلاف من ابطال اهل الشام ، فاحدقوا بخضراء دمشق ،
وفيها عبدالملك ، فقالوا : يا أبا امية ان رابك ريب فاسمعنا صوتك ،
فدخل فجعلوا يصيحون : أبا امية اسمعنا صوتك ، وكان معه غلام
شجاع فقال له : اذهب الى الناس فقل لهم : لا بأس عليه ، فقال له
عبدالملك : أمكر عندالموت ؟! خذوه فاخذوه ، ثم قال له : اني اقسمت
إن مكنتني منك يد ، ان اجعل في عنقك جامعة ، وهذه جامعة
من فضة اريد ان أبر بها قسمي . فطرح في رقبته الجامعة ثم ثره
الى الارض فانكسرت اسنانه ، فجعل عبد الملك ينظر اليه ، فقال
عمرو : لا عليك يا امير المؤمنين عظم انكسر . وسمع الاذان الى
الصلاة . فقال عبد الملك لعبد العزيز ابن مروان : اقتله حتى ارجع
اليك ، فلما اراد عبد العزيز ان يضرب عنقه ، قال له عمرو : نشدتك
بالرحم ان لا تقتلني من بينهم ! فجاء عبد الملك فرآه جالساً ، فقال :
مالك لم تقتله لعنك الله ، ثم قال : قدموه الي ، فاخذ الحربة بيده ،
فقال له عمرو : فعلتها يا ابن الزرقاء ، فقال له عبد الملك : اني لو

علمت انك تبقى ويصلح لي ملكي لفديتك بدم الناظر ، ولكن قلما اجتمع فحلان في اجمة ، الا عدا احدهما على الآخر . ثم رفع اليه الحربة فقتله وقعد » .

وتساءل الاستاذ هنا فقال :

أين مواطن العراك النفسي في هذه القصة ؟ ، وأين اثر العقل ؟ واجاب فقال : ذلك ما نحاول ان ندل عليه ، ونبدأ بعبد الملك . فانك لتلمس ما في نفسه من عراك عاطفي قوي ، في قوله : « لو علمت انك تبقى ، ويصلح لي ملكي ، لفديتك بدم الناظر ، ولكن قلما اجتمع فحلان في اجمة ، الا عدا احدهما على الآخر » .

ففي الشق الاول من كلامه يفجؤك شعور الاشفاق قوياً في قوله : « لفديتك بدم الناظر » . وفي الشق الثاني تحس جانب الشر قوياً عارماً عنيفاً ، تسنده عاطفة حب الذات الجبارة ، وتجد سلطان هذه العاطفة غالباً ، حتى على العقل في قوله : « قلما اجتمع فحلان في اجمة الا عدا احدهما على الآخر » . وهكذا لم تقو عاطفة الاشفاق الضعيفة على الصمود في وجه عاطفة حب الذات الجامحة . فلما انهزمت الاولى قتل عمرو بن سعيد .

ولكن ألم يكن عمرو بن سعيد هذا ، عدلا في العاطفة لعبد الملك

بن مروان ؟ ، فلقد كان المطمح واحداً ، والهدف واحداً ، ثم ان عمراً بن سعيد كان قرناً لعبد الملك ، حتى لقد ارغمه ، كما رأيت ، على التسليم والرضا بان يتولى الخلافة من بعده ، وبان يكون له عامل ، مع كل عامل ، وحتى انه استولى بالفعل على بيت المال . فكيف تمت الغلبة لعبد الملك عليه ؟.

من صفات العواطف انها تغفو بعد الظفر في المعركة ، كالعضلات الجسمية إذ تطلب الراحة بعد التعب . فلما ارغم عمرو بن سعيد عبد الملك على مصالحته ، غفت عاطفته ونامت ، بينما كانت عاطفة عبد الملك يقظة ساهرة ، موتورة ، فهي قد غلبت على امرها . وكيف تنام على الضيم ؟! وترضخ للعدو ، وهي تحس ذل الرضوخ ولما تبلغ مناها ؛ وهكذا ظلت ثائرة ، ساهرة ، جادة حتى تمت لها الغلبة ، بالغدر والحيلة ، فقضت على عدوها .

وأنت إن تدبرت في هذا الذي قصصنا عليك ، لا تبعد عن الصواب ان ذهبت الى ان ظفر عمرو بن سعيد ، هو الذي قتل عمراً بن سعيد .

وتجد في هذه القصة لوناً آخر من العراك النفسي ، ان فطنت لما كان بين عبد الله بن الزبير ووجوه اهل العراق ، حين وفدوا

عليه مع اخيه مصعب ، فخاب رجاؤهم في عطائه ، فولوا وجوههم شطر عدوه عبد الملك ، فكاتبوه على أن يكونوا له ظهراء .

ففي وسعك أن تفسر انقلابهم هذا ، بأنهم لم يكونوا مدفوعين الى نصرة ابن الزبير ، بعقيدة دينية راسخة ، بل كانوا مسوقين ، بالطمع في رفده ، فلما خاب رجاؤهم فيه ، تركوه الى عدوه فصاروا عوناً له عليه ، وهكذا تغلب الطمع القوي على الشعور الديني الضعيف .

وهنا مفتاح النجاح ، لمن يتغلغل في اعماق النفوس ، فيقف على ما فيها من اشواق واهواء ، ويعرف كيف يستخدم معرفته هذه .

ونخلص من هذا التحليل الى ان المنطق الديني لا يصلح وحده للقيادة في المجتمعات ذات الايمان الضعيف .

واذا انتقلنا الى موقف امرأة سعيد بن الاشدق ، وعاتكة بنت يزيد بن معاوية زوج عبد الملك ، نجد ضربا آخر من ضروب العراك النفسي ، فلقد كانت عاطفة الحب عندهما هي الدافع على ما حاولتا ، حين وقفت الاولى في وجه زوجها تحذره من الاستجابة الى عبدالملك ، وحين نهضت الثانية تريد اقناع زوجها بان يكل امر مصعب الى احد

اعوانه . ولكن شعور الحفاظ والنخوة عند الزوجين كان اشد واقوى من عاطفة الحب ، فلم تصنع العقيلتان شيئاً .

ولعلنا بعد هذه الجولة لا نكون قد جرنا على الحقيقة اذا نحن ذهبنا الى ان دنيا الناس انما تقوم في الغالب على العواطف والمنافع والشهوات ، وليس على العقل أو المنطق الديني او الاخلاق الفاضلة . وان من اراد لنفسه السلامة ، عليه ان يرقب الجانب النفسي في صلاته الاجتماعية ، وحين يتحرى الحقائق ، ويحاول حل المعضلات » .

وهنا انتهى الاستاذ من حديثه ، وخرج من قاعة الصف مشكور الصنيع ، محمود النقيبة .



- ١٠ -

نحن الآن أمام شخصية اخرى ، تتصل بالمدرسة ، ولكن هذا الاتصال ، ليس من ناحية التربية والتعليم ، ولا من ناحية الادارة ، بل من الناحية الصحية ، وتلك هي شخصيه الطبيب.

يقبل عليك بحقيبته ، فاذا أنت أمام رجل ربعة ، ممتلئ الجسم ، مقبول السمت ، انيق الهندام ، ظاهر النشاط على رغم خمسين عاماً شهدها ، وان كانت قد خلفت في وجهه بعض الأثر من مساحب اذيالها. وتجالسه فتجده مزهواً ، وتقع منه على انسان يطيب له أن يسمعك تزف اليه آيات الاعجاب بفنه وطبه.

لم يكن عمله في المدرسة اصيلا. وانما هو رديف لعمل له اصيل في الحكومة ، فكان يتعهد التلاميذ في المدرسة حيناً بعد حين . ولكن الاشخاص الذين تند اخلاقهم ، أو تشذ عقولهم فيصطنعون الحياة على غير ما توجب الاخلاق النبيلة ، او تتطلب الانسانية المترفعة ، لا يمضون عنك الا وأنت تنعي الحياة ، وتستثقل من اجلهم ظلها ، وتبقى ذكراهم ناشبة في نفسك تفعل فيها للمغلة ، فتعيش معك

على طول ما تحيا .

ومن هذا الضرب من المخلوقات طبيب المدرسة ، هـذا الذي نحن في حديثه ، فهو كان فيما عرف الناس عنه وفيما عرف محدثنا الصبي معهم ، لا يطيق ذكر أي من اطباء المدينة ، فهم فيما يعتقد دونه قدرة وخبرة ، وتتبعاً للاكتشافات الطبية، ودونه فطنة لما استتر من الامراض ، واستعصى من العلل . وانت تراه يعيش دائماً في جو مشبع بتزكية النفس ، كما هو مشبع باستصغار شأن الزملاء . ولن تستغرب ، وانت ملم بعقله هذا ، أو بحياته هذه ، ان ألفيته يزن طبه بالدينار ، وألفيت من غرمه الصوت الفارغ من اولئك الفقراء ذوي العاهات والاسقام ، يقفون على بابه حيارى إزاء هذه الارقام المرتفعة لما يتقاضى على طبه من الاجور ، فلا اوجاعهم تهادنهم ، ولا هو يحسها ، وكيف يفعل وبينه وبين الشعور الانساني حجاب صفيق !.

وتراه كذلك في جو ثنائي آخر . فهو يعيش على المصانعة والمداراة لمن فوقه ، وعلى كثير من البذل للدعاوة لنفسه ؛ فلقد اصطنع زيداً من النـاس ، فيما قالوا ، على اجر شهري معلوم ، فـكان هـذا الزيد يطوف بالمجالس مكبراً فن صاحبه ، مشيداً بحذقه مقرظاً

طبه ، الى ان عثر الداعية المسكين عثرة ، فارق معها الحياة في سبيل الدجل .

وليس هذا كل ما يريد الصبي ان يستعرض في حديثه من ذكرياته المتصلة بالطبيب ؛ وانما يقصد الى شيء آخر ربما ساق اليك العبرة ، وربما ساق الاسى ؛ فلقد كان هذا الطبيب ذات يوم في المدرسة ، فتقدم الى المعاينة الطبية تلميذ احس اعياء مشى اليه من انحاء جسمه جميعاً ، واحس الى جانب هذا الاعياء مساً خفيفاً من رسيس الحمى ، وكان في الواقع مصاباً بالقلاب كما علم فيما بعد .

ويقول الطب في هذا المرض ؛ انه التهاب جرثومي يصيب صمامات القلب ، من فعل المكروب السبحي الاخضر ، فيتسرب اليه من الافواه ـ حيث يعيش في الغالب ـ ، حين يجد منفذاً . وأن أمره يختلط احياناً على غير الحذاق من الاطباء فيحسبون اعراضه طلائع امراض اخرى يخشاها الناس .

وحدث ان اغلق الله باب الفطنة على صاحبنا الدكتور فشخص المرض على غير حقيقته . وحسب انه اكتشف ناحية بكراً من الطب ، او شيئاً خطيراً يصلح للنشر والدعاوة ، فراح يجهر بما شخص من مرض التلميذ المسكين ، واتخذ منه وسيلة لرفع الصوت ،

شأن الانتهازيين ، حين يهتبلون الفرص .

وننتقل الى العلاج ، فلقد شرع هذا الطبيب يحقن التلميذ بنوع من هذه الامصال المستحضرة ، ولكن طبه هذا مضى على غير طائل . ولو انه داوم على هذه المعالجة ، لسبب للمريض ، على رأي احد الاطباء ، نزيفاً كان من المحتمل أن يذهب بحياته . ولكن القدر شاء السلامة ، فعالجه طبيب آخر ، عرف المرض فكان الشفاء ولو انه لم يكن على يد الدكتور فتوح . . .

ويذكر الصبي ان مدير المدرسة أصيب يوماً بالبرداء ، فقام صاحبنا الطبيب على مداواته . ومضت ايام وهو يجهل حقيقة المرض ، فكان ينقض اليوم رأيه بالامس . ولا يسعك الا ان تدهش وتحار ، حين تسمعه يقول لاهل الرجل : « لو أن مريضنا شخص آخر ، لحقناه بانواع مختلفة من الامصال ، فيفعل فيه ما يوافق مرضه ، ولكنا لا نجرأ على هذه التجربة في مدير المدرسة » .

وذات يوم ، جاءه جميل المسكين ليعالج ابنه ، من مرض جلدي في رأسه ، ويكتفي الدكتور بنظرة خاطفة ، ويصف العلاج مرهماً ، ويستعمل للطفل ، ثم لا يمضي من الوقت الا قليلا ، حتى ينتفخ وجهه ، فتكاد تغيب معالمه ، فيهرع الوالد بابنه الى

الدكتور ، فيدور هذا الحوار ،

- دكتور ! انظر ، ما حل بالطفل بعد العلاج .

- وماذا تريد ان اصنع له ؟ .

- دخيلك ابني راح يموت !

- انا غير متخصص في الامراض الجلدية !

- دخيلك ابني راح يموت يادكتور !

- قلت لك انا غير متخصص في الامراض الجلدية .

- لكن يا دكتور ، انت شفت الصبي واعطيت العلاج ، وما قلتش انك مش متخصص ؟

- خذ ابنك وانصرف .

- دخيلك يادكتور !

- اخرج ، اخرج من هنا !

- دخيلك ، اعمل معروف ، ابني راح يموت !

- اخرج . اخرج يا كلب !!! ودفعه الى الخارج ، ثم اغلق باب العيادة ، كأنه لم يصنع شيئاً .

فهل هذا الدكتور يعيش بلا ضمير ؟ . . .

. . .

-١١-

وبعد فلا يزال في نفس محدثنا من ذكرياته شيء أو اشياء تمت الى المدرسة ، وتعيش معه منذ ايامه تلك . فلقد شهد تحكم الاتراك في حرية الدرس والتدريس ، بما حرموا من الخوض في النواحي التاريخية المهمة او ذات المغزى البعيد ، وبما شوهوا به الخرائط حذفاً وتبديلا في اسماء بعض البلدان ، وبما حظروا من قراءة العلوم الفلسفية والاجتماعية ، ومنعوا الاساتذة من التبسط فيما يلقون على التلاميذ من الدروس ، فكان بعض هؤلاء يحارون ، حتى حين يعالجون المسائل الحسابية ، أو النحوية ، اذ يخشون ان توافق الاشارة الى عدد من الاعداد ، سني الظلم ، أو أن تشير الفتحة أو الكسرة ، الى فتح العين و كسر القيود ، وما كان هذا الضغط على حرية التعليم ، الا خشية ان ينبثق نور العلم ، فيفيق الناس على وعي انهم من بني البشر ، وان لقومهم حقوقاً مهضومة .

شهد هذا من الاتراك ، ولم يشهد من الناس ايامئذ ، وهو لا يزال حتى ايامنا هذه ، لا يرى اي اهتمام بما يقدم للابناء في المدارس

من غذاء للنفس ، وزاد للعقل ، وتقويم للخلق ، وبناء للجسم ؛ فكأن لا حق عليهم لافلاذ اكبادهم ، رجال اليوم المقبل ، أو كأن نفوس الآباء قد طاف بها الجبن فقتلها ، او الغفلة فاعمتها ، فباتت لا تذكر لتعتبر ، ولا تفكر في المستقبل لتعد العدة وتدخر العتاد .

ولا عجب اذن ، ان لم يكن في مناهج التعليم يومذاك ، ومحدثنا يعلم ان ليس فيها حتى اليوم ، ما يلقن الاحداث شيئاً ذا بال من فن الحياة ؛ فهي لا تنبه العقل ولا تزوده بالقدرة على التفكير ، ولا تعد التلميذ للعيش المكافح ، ولا تعلمه كيف يقتصد ويتأثل ، أو كيف يسهر على بدنه ، ويسوس مشاعره ، ولا سيما في دور المراهقة : اخطر ادوار الحياة ، من حيث ايجابها على المراهق ان يرقب ويداري اعصابه واحاسيسه ، اكثر مما عليه أن يرقبها ويداريها في أي دور آخر من عمره .

هذه امور يجب ان يهتم بها الناس والحكومة الساهرة المخلصة معاً ، منذ البداية ، كالاهتمام بتلقين الاطفال حروف الهجاء منذ البداية . ونحن خلقاء بان نفهم اليوم ونقتنع بانه ليس لمظهر من مظاهر النشاط في مناحي الحياة - عند اي شعب من الشعوب - وزن

أو كبير قيمة ، حين لا تكون المدارس في طليعة ما يهتم به من الوسائل لضمان الحياة الكريمة الناشطة في البلد .

فعلينا ان نفكر في المدارس آباء واحزاباً وجماعات . وان نثور على الدنيا إن أسيء التوجيه فيها ، أو ضن بالبذل عليها ، أو حصل تقصير في اصطفاء خير الاساتذة وافضلهم لها أو انتقص حق من حقوقها ، فهي روح الشعب ، ومن عبث الايام ان تسند ولايتها الى من لا يعقل هذه الولاية ، حين يرغب الراغبون في مصانعة هذا الذي لا يعقل ، او يبتغون له مورد رزق يعيش عليه . فانت من مصانع النشيء هذه التي نسميها المدارس ، امام اداة قدسية تتمرد على الزمان بما لها من فعل جبار ، وبما لهذا الفعل الجبار من تأثير بالغ يمتد ويطول الى اكثر من حياة التلميذ ، فهو يبلغ روح الاجيال القادمة . وأي شعب لا يعرف للمدارس هذه القيمة التي لها يصبح فاذا حياته واهية الاسباب ، واهنة الحيل ، ثم لا يلبث ان ينقطع في الطريق . وانت لا تجد اليوم من يلتفت الى الوراء ويتريث ليأخذ بيدك .



- ١٢ -

هل اتفق لك أن نهضت في اعقاب الليل ؟ ، وهو يتراجع متثاقلا يسحب اردانه ويجرر اذياله ،فيصحو على حفيفها الكون وأنامل الفجر تمسح على وجهه ، وانفاس الصباح تغشاه . حينذاك أنت في السحر حيث تحلم الدنيا ، وتنعدم المسافات ويرتفع الحجاب بينك وبين إلهك ، فتتصل به روحك بالنجوى ،وقلبك بالخشوع .

ما احيلى ان تجد نفسك عند مطالع الفجر بين يدي ربك تصلي وتستغفر ، ثم تدعوه وتضرع اليه وتلح في التماس العون والرضا والغفران والعافية في الدنيا والآخرة .ذلك ما نشأ عليه صاحبنا الصبي وهو على طول ما مر به الى اليوم من السنين ، لا يزال يتذوق في قرارة نفسه حلاوةأيامه تلك ، حين كان لا يشغله شاغل ، غيرالدرس، وغير الطاعة والعبادة .

هذه طبيعة الحداثة ، وخاصة في البيئة الصالحة ، فهي اقرب الى الله دائماً ، بقلبها الطاهر الخائف الراجي ، وبنفسها الساذجة الراضية . وانت لو اصغيت الى ما يجول في خواطر الاحداث ، اذن

لوجدت الكثير منه ، احلاماً تدور حول تصور الخالق في عظمته وجلاله ، وابتهالا يطلب الجنة والرضوان ، وتوسلا يلتمس سعادة الدارين . وكم في دنيا الخلق من غبطة يعاش فيها على الاحلام !

ليت الذين عرفوا ملذات المعاصي ، يتذوقون ملذات الطاعات ! اذن لعلموا بان للروح في صفائها وقربها ، لذات تفوق ما ذاقوا من شهوات هذا الجسم الفاني .

تتكلم العواطف ، ويصمت العقل ، وتقضى الاوطار الفاجرة ؛ ولكنها تنتهي على الدوام بالاسف والخيبة . اما لذة الروح وسعادتها فهي حبة تعيش معك دائماً ، لتعينك على احتمال الشدائد .

كان الصبي في صلاة الصبح ، ذات يوم ، مؤتماً بشيخ من العلماء أثقلته اعوامه الكثيرة ، فصار يحمل نفسه على جهد ومشقة ، واذا وقف الى الصلاة ، لا يتماسك الا رعيش الجسم ، خافق العود ؛ فاذا هو في صوته الخاشع الضعيف المتهدج يتلو :

« ياأيها الذين آمنوا ، هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم : تؤمنون بالله ، ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

الكلام تنزيل من حكيم عليم ، يقرع الأذن ، وينفذ الى

القلب . والصوت يحمل من الشيخ الامام رجفة الفناء الموشك . والمعنى يهتف بالروح ، يلهمها الخوف والرجاء ، فتهرع الى الله في طلب الزلفى .

ويفكر الصبي في هذه الآيات الكريمة ، فتشغله عن نفسه وعن دروسه . هو يؤمن بالله ورسوله . ما في ذلك من شك ، ولكن كيف يجاهد في سبيل الله بماله ؟ ، واين هذا المال ؟ ، وبنفسه ، وهو طري العود ، رقيق البنية ؛ ثم أين يجاهد ؟ .

ويظل في تفكيره هذا ، حتى يعلم بان ردع النفس عن شهواتها الآثمة ، وايقافها عند حدود الطاعة ، جهاد في سبيل الله . ومنذ يومه ذاك ، صار يحلو له أن يتلو تلك الآيات الكريمة ، حين يقف بين يدي الله . ولا يقرأ في كتاب الكامل قصة الفقيه الفندلاوي شيخ المالكية في دمشق ؛ ذلك العجوز الزاهد الذي ذكر التاريخ انه خرج راجلا مع من خرج من السكان والجند الى قتال احد ملوك الفرنجة من الصليبيين حين قصد غزو الشام . فقيل له : أنت ياشيخ معذور ، ونحن نكفيك ، فليس بك قوة على القتال . فاجاب قد بعت واشترى ، فلا نقيله ، ولا نستقيله . يعني قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم ، بأن لهم الجنة »

هو لا يقرأ في هذه القصة الزاهدة ، إقدام الشيخ الفندلاوي على الجهاد ، وليس به قوة عليه ، الا ذكر ذلك الامام الشيخ الراجف المتحامل على نفسه ، وهو يؤدي الصلاة قائماً ، على ما به من تهافت وعجز .

وكان الصبي يرغب عن اللهو والحديث مع اترابه ، ويميل بطبعه الى مجالسة الشيوخ العلماء يصغي الى ما يعظون به العامة ، واحياناً الى ما يلقون من الدروس على تلاميذهم . وكان يحاول أن يلم بشيء مما يقولون في دروسهم تلك ، ووعظهم ذاك وفي احاديثهم حين يفرغون من الدرس . ويجد في بعض ما يفهم لذة ومتعة وحلاوة ، كان يؤثرها فيما بينه وبين نفسه على اللهو مع لداته ، وهو منذ ايام حداثته تلك ، اقرب الى الجد منه الى الهزل ، بل هو ادنى الى الوجوم منه الى المرح والانطلاق للدنيا .

وجرته مجالسته للعلماء ، ومواظبته على الصلاة في الجامع الى ان يتقبل الطريقة الصوفية النقشبندية ، فهو يذكر شيخاً صوفياً تركياً هبط المدينة ذات يوم . فاقبل عليه الناس يلتمسون البركة ويتلقون منه الطريقة ، فحذا حذو الناس ولم يلبث ان صار صوفياً نقشبندياً يذكر الله تعالى ، ولكن ليس بلسانه بل بقلبه ، ولا يذكره مرة

أو مرتين أو ثلاثاً ، بل آلافاً خمسة أو أكثر في اليوم الواحد ،
واليوم وهو يستعرض ذكرياته هذه يعجب كيف كان وقته آنذاك يتسع
لهذه « الدروشة » ، وكيف كان يؤمن بان للطريقة النقشبندية سراً
يتصل بالقلب فيجعله ينطق باسم الجلالة . فانت اذا ما اصغيت الى
وجيب قلبك في اطراقك في خلوتك ، وجدت له ركزاً ، فيخيل
اليك ، وانت تحس هذا الركز ، ان القلب يذكر الله سبحانه وتعالى .



(١٣)

عرف الصبي في مجالس العلماء شخصاً لا يمت في الواقع الى العلم ، ولا الى الدين بشيء حق . وإن كان يكثر من الصلاة والتسبيح ، ويرتدي ثوب التقى والورع .

يغرك منه ظاهر يبديه ، ويؤذيك باطن يخفيه ، فانت إن شهدته ، رابك الخبث يومض في عينيه ، ولاح لك النفاق في هزة رأسه الاصلع ، ورأيت القدرة على الخطف في حركة يد ، ما سقطت على شيء ، واستطاعت سلبك اياه ، الا فعلت .

أرأيت معجزة النفاق يغزوك ، وبالدموع احياناً ، لينفي عنه شبهة ، أو يثب الى قربى ؟ ، ذاك هو صاحب الصبي . وكان قاضياً فأساء الى القضاء ، بشرة لا تعرف غير الدبيب في طلب الرشوة ، وقضاء الشهوة . فانكره الناس ، وأنكره أولو الامر . وكان اخلق به أن ينكر نفسه . فأقيل شر اقالة ، وطرد شر طرد ، واستراح القضاء منه كما استراح الناس .

وينقضي ردح من الزمان . فاذا اليد الناعمة ، تعيد أبا الدموع

الى حيث كان ، أو الى حيث ارادت ان يكون ، ويعود الناس منه الى ما كانوا بالامس .

شرعت مصلحة البلدية تعبد الطريق ، على مقربة من بيته العامر! فرأى اكياس « الاسمنت » . واصبح الناس ، فاذا صاحبنا ابو الدموع قد سطا على مال البلدية . وهل من سبيل الى التعفف والاكياس تلك في متناول يده ؟ !

ويزور بعض المدن ، متفقداً مجرى العدل ، فهو كبير في القضاة . ويهبط عليك ضيفاً ، فاذا هو قد نسي ، بعض ما يحتاج اليه من قميص أو منامة ، أو رداء أو شيء غيرهذا وذاك ، مما لا بد له منه . فلا يسعك الا ان تسد حاجته تلك . فهو ضيفك ، وانت برضائه ضنين ، ولا سيما ان كنت قاضياً .

وتلوح في الافق غنيمة ، فتراه يتسلل اليها بنفوذه الرسمي ، أو بالنفاق ، أو بالمصانعة عند الحاجة ، فيقع عليها ، وقلما نجا انسان من غزواته .

هو عالم ، فيما يدعي ، وهو قاض عادل ، وخليفة في الطريقة الرفاعية ، أو غير الرفاعية ، ليس يدري الصبي ، وهو « رخ الشطرنج » ، كما يقول عن نفسه ، وهو الحسيب النسيب ، ومع كل هذا ، إن كنت

صاحب قضية ينالها نفوذه ، أو لسانه نكبك في منال يده منك ، أو كنت « درويشاً » على طريقته ، مخدوعاً بشعوذته ودجله ، سخرك للخدمة في بيته ، او لاي عمل في بستانه ، أو كنت واياه في السوق ولمح فاكهة طريفة حبذها وحببها اليك ، فتشتري ، فيقاسمك ما احرزت بمالك .

والى جانب هذه المناقب ... لا ينفك عن دعوى الصداقة عند حاجته اليك ؛ يؤكدها بالقسم وبالدمع يسيل من عينيه في يسر ، متى اراد ، وحيثما اراد .

ويأتي يوم فيجازيه الله على شروره وآثامه ، ويتعجل في عقابه ، فيصاب بلوثة في عقله ، فيغث ويرث بين الناس . وتكون المظلة بالغة .

وبعد فان رأيت في طريقك يوماً صورة مثل هذه ، فاذكر صاحبنا أبا الدموع ، لعل ذكراه تعظك . فتجديك ، كما اجدت محدثنا ؛ فهو لا يقع على المبالغة في اظهار المودة ، أو ابداء الاحترام ، أو في التماس القربى ، أو في أي شيء آخر ، الا وجد فيها معنى الكذب والنفاق والتغرير .

• • •

- ١٤ -

ويجتاز الصبي امتحانه الاخير في مدرسته ، فيتجه الى استئناف الدرس في بلد آخر. ولكن هذا يحتاج الى المال . وهو يعلم ان امه نفضت يدها - والعهد قريب - من آخر عقار ملكته . ويعلم كذلك بان يد الوالد خلت قبلا مما كان يملك ، وانه اليوم ينفق من صبابة مال تكاد لا تفي بالكفاف .

ويفكر بينه وبين نفسه ، فيما يسعه أن يصنع ليبلغ هدفه ، ويطول به التفكير ، فيعيش زمناً على الخواطر الهاجسة . ثم تجود الفكرة فيذكر خاله في البلد الذي عليه أن يدرس فيه ، فلقد سمع امه ، تذكر أخاها - وكان لا علم له به من قبل - وتتلهف على رؤياه ، وتقول هذه اربعون عاماً تصرمت ، وما زالت الموانع قائمة دون اللقاء .

ويبادر الصبي ، فيكتب الى خاله ما شاءت الحداثة أن يكتب ، وتهز الرجل رسالة ابن اخته ، فيقبل عليهم بنفسه ، وتتلقاه الشقيقة بدموع الفرح ، فيتعانقان ، ويجتمع الشمل الشتيت . ثم لا يمضي غير ايام فيجد صاحبنا نفسه في المركبة الى جانب خاله ، فتسير بهما

يومين كاملين من الصباح الى المساء حتى يبلغا مكانهما .

ويذكر الصبي ، وإن طال العهد ، حادثاً طرأ في اليوم الثاني من رحلتهما . فلقد اصطدمت مركبتهما باخرى ، فانحدرتا الى وهدة على جانب الطريق ، ولكن الحادث مضى بسلام ، وبقيت ذكراه في نفس صاحبنا تمده بالجرأة ، وتلهمه الأمل في السلامة ، إذ يواجه الشدائد والاخطار .

وبلغا المدينة في يومهما ذاك ، فوقع الصبي على وجوه لم يعهدها ، ومناظر لم يأنس بها من قبل . فانتابه ما ينتاب الغريب من هذا الشعور الغامض المبهم يحسه الانسان في بلد آخر ، عند قوم اخرين . وظل في بيئته الجديدة أياماً ، يعيش خجلا فكنت تراه في الغالب منفرداً بنفسه ، مستوحشاً ، يخالجه الحنين لاهله وذويه . فلقد كان يجد عندهم اشياء روحية ، ليس اليها ، هنا ، في الغربة من سبيل .

وكان حيياً اكثر مما ينبغي ، فاذا تكلم أوجز ، واذا جلس الى الطعام ، كفاه ما يدفع الجوع ، ويمسك الحوباء . ولطالما اهاب بنفسه ، يزجرها عن هذا التهيب الملازم يسد عليه مسالك البهجة ، ويقصيه عن مجالي الانس . ولكنه في الواقع كان ملك اعصابه وكبريائه ، اكثر مما هو ملك عقله وتفكيره . فلقد صبر كثيراً

على الحرمان من اشياء كان شديد الحاجة اليها ، وما ذاك الا خشية أن يخدشه تصرف يقدم عليه فيورثه الندامة والاسى .

وتمشي الايام ، وتهون الامور ، فيما بعد ، على صاحبنا فيقبل على الدرس يجد ولا يتعب ، ويعب ولا يروى . وان كان لم يجد في مدرسته الجديدة شيئاً غير ما عهد في السالفة ؛ فالمنهج هو المنهج ، والروح هو الروح ، والمعلمون كأنهم لم يتبدلوا ، وليس من تفاضل بين المدرستين ، الا من حيث ارتقاء الصفوف .

وتنقضي اعوام الدراسة ، فيعود صاحبنا الى اهله ، بادي الشباب ، صليب العود ، وقد اكتسب علماً جديداً ، وخبرة لم تكن له من قبل .



(١٥)

هو اليوم فتى يفكر اكثر مما كان يفكر من قبل . وتعنيه الحياة اكثر مما كانت تعنيه . ويقدر عظم ما على المرء أن يبذل من جهد ، وينفق من طاقة ، لتسمه الدنيا ، فيجد له بين الناس مكاناً كريماً ، يعمل فيه ويعيش . ويعلم أن لابد له من أن يقصد الى الآستانة ، منهل الثقافة العالية . ولكنه يتحسس ما عند أبيه وأمه ، من مال فلا تقع يده على ما يحقق الامنية ، ويسعف الامل .

وهو عظيم المطلب ، كبير النفس ، لا يطيق أن يتخلف ، ولا يصبر على شعور القاعدين المتخلفين . فماذا يصنع ؟ وما هي الحيلة يتذرع بها اليوم ؟ وهو في مثل هذا الضيق والحرج .

فكر كثيراً ، وجاب آفاق العقل ، من قريب ومن بعيد ، وعاش على اجنحة الخيال ، وفي لجج من الحيرة اياماً طوالا ، وليالي ساهرات حالكات . فما اهتدى الى رأي يتخذه ، ولا الى حيلة يحتال بها ، فيصدق نفسه ما وعدها بالطب هدفاً يسعى اليه لا للرزق فحسب ، بل وليكون له أداة ، ينذرها للانسانية ، فيداوي

بها شق الامراض ، ويضمد الجراح ، ويواسي البؤساء الموجعين .

وتعلن الحرب العامة الاولى ، وصاحبنا لا يزال يعيش على همه وقلقه . وتقوم الدنيا ، ويستطير الفزع ، وتنقلب الاوضاع على اعقابها . فاذا الجندية تستدعي الفتى ، فهو اليوم في سنها . ولكن روحه تناهض الحرب ، وليس لعقله رأي فيها ، ولا لمشاعره ميل اليها ، وعنده أن لا شيء اشنع وافظع من أن يقتل الانسان الانسان ، الا ذوداً عن الحرمات ، وصوناً للسيادة ، أو دفعاً للتعدي . وليس في تلك الحرب شيء من ذلك في نظره .

ويحزب الأمر فتانا ، ويشتد الخطب عليه ، فلقد كان يبيت على هم ، فصار يبيت على همين ، وكان يعيش في غمرة ، فاصبح في غمرتين ، واصدق الظن انه يكتمنا هما ثالثا اكثر السهر ، وعاف الطعام من اجله ، وليس هذا الكتمان لعلة تخجله ، فيحمر لها وجهه ، أو تفسد عليه دينه ، أو تخذله في مروءته ؛ وانما هو لاتصال همه ذاك بالقلب . وللقلب حرمته ولسره قدسيته . ونحن حرصاء على أن نبقي خزائن قلوبنا مقفلة دون غيرنا ؛ فهي مانعيش عليه في سرائرنا ، نتعزى به وقد نشقى ، ويطيب لنا ذكره ، وقد توجعنا ذكراه .

ومهما كان الامر ، فنحن أضناء به على الناس . ولكن الكلام قد

يساق للعبرة وللخير ، وحديث القلب لذيذ في السمع ، محبب الى النفس ، ولا سيما حين تخالطه الموعظة ، ويرافقه العفاف ، وما لنا نطيل ، فلقد افاق الفتى على نفسه ذات يوم ، فالفاه يقول في نجواه :

ليت الحبيب يرى فصول روايتي
فيما احس من الهوى واعاني
اهفو فيرجعني العفاف مؤنباً
فأعود من وجدي الى نيران
واظل اخفق بين قلبي والنهى
لا تعجبوا ضدان يختصمان
هذا يذوب صبابة ويضج بال
شكوى وهـذا آخذ بعناني
وانا اعيش على مرارة ذا الهوى
وصفي روحي غافلا يلقاني
سلمت مفاتنه ودمت معذباً
مر الهوى كحلاوة الايمان

حلت في البيت المقابل أسرة عريقة المحتد ، عريضة الثروة . ولم تكن هذه الجيرة الجديدة مما يكترث له الفتى ، فهي تحدث كل

يوم فلا تترك في النفس شيئاً يشغل الفكر ، أو يلفت النظر ، أو يحرك الشعور . ولـكنه افاق ذات صباح على صوت ساحر يتلو آي الذكر الحكيم .

« هذا صوت فتاة ، ما في ذلك شك ، وهـذا تجويد قارئ مجيد ولا ريب » . ذلك ما قال الفتى في سره ، وهو يقوم الى نافذة غرفته ، فيفتحها ؛ ثم تأخذه حلاوة الصوت ، وحلاوة الترتيل ، فيظل في مـكانه مستسلماً الى هذه العذوبة الرائعة ، مدة لا يذكر أطالت أم قصرت . وتنقطع التلاوة ، ويرى الفتى ، في التو ، فتاة رشيقة تفتح نافذتها المقابلة ، فيقع النظر على النظر ، ويخفق القلبان .

وتمضي ايام على الفتى ، يوقظه الصوت الساحر الغريد ، فيقف موقفه ذاك من النافذة ، فيصغى وقتاً من الزمان ، مستغرقاً ، حالماً محلقاً في اجواء السماء مع الصوت الحلو الرائق ، وهو يرتفع الى الله. وتنتهي القراءة ، وتفتح النافذة المواجهة ، ويلتقي النظران ، ويخفق القلبان . ثم يعود الفتى ، وتعود الفتاة الى ما يشغلهما من أمر دنياهما .

وتتعـارف الاسرتان وشيـكا ، وتتزاوران ، وتتصـادقان ، وتتهاديان وترتفع الكلفة ، فتحل المودة .

واتفق ذات يوم ، أن كان الفتى خارجاً من بيت اهله ، حينما

كانت الفتـاة مقبلة في زيارة تقوم بهـا لأمه ، شأن الجيران حين ينهض حسن التفاهم بينهم ، وتقوم صلاتهم على المودة ، فيقف يفسح لها الطريق ، احتراماً واكراماً ، ويدور هذا الحديث :

- ما فتحت نافذتي إلا رأيتك .

- وانا ما صحوت من نومي الا على الساحر الغريد .

- أأعجبك ؟ وأنت تصغى الي ...

- أتسألينني عما تعلمين ؟

- ولماذا لا تقرأ القران الكريم فاسمعك بدوري ؟

- ليت لي صوتك ! اذن لجعلت الكون يقف ليصغى !

- حذار من المبالغة !

- قلت بلسان قلبي .

- آه ! إنه لكريم .

- ولكنه خفاق متعب .

- وهل هو وحده الـ ...

ومات الكلام على شفتيها ، فلم تعد تقوى عليه ، فانصرفت مهرولة الى الداخل ، ومضى مهرولا الى الخـارج ، وهو يقول في نجواه :

هل تعلمين بأن الله اعطاك

سحر القلوب وللاغراء سواك ؟

يمشي اليك فؤادي أينما انطلقت

للحسن بارقة من نور مرآك

لو تشرفين على دنيـاي لانعطفت

علي بالرفق والتحنان يمناك

كتمت حبي زماناً استطب له

فمقني القلب في طبي ووالاك

وتمضي الايام ، فيزداد الاتصال بين الأسرتين ، وعلى الأكثر بين القلبين . وتلم الفتاة بشيء من هم الفتى ، وتعرف رغبته في طلب العلم ، كما تعرف انه على وشك أن يدعى الى الجندية . ولم يكن خافياً عليها ما كانت أسرة الفتى تعانيه ، من اجل ذينك المطلبين . ولعل علمهـا هذا ، جعلها تفكر في صنيع تصنعه ، فيـكون وسيلة لقلبها ، وارضاء لحبهـا ، ودفعا لهم الفتى ، وقد اصبح همهـا . وما لبثت ان بعثت اليه بصرة ضمنتها عدداً ليس بقليل من الدنـانير . وهذه رسالتهـا :

وحيد

انا مقدمة بهذه الرسالة على أمر ، لا اعلم تأويله عندك . وإن كنت لا اجد فيه ما لا يرضيك . فانت تعلم بان عهدنا الصدوق قد وحد دنياي ودنياك ، ووثق ما بيني وبينك . وهذه هدية تمشي اليك على استحياء . واني لارجو أن يكون لها الحظ الذي اتمنى . واعدك ، حين تعوزني النقود ، بأني سألتمس حاجتي عندك . ولي من حسن الظن فيك ما يتحد معه الرأيان ، كما اتحدت العاطفتان ، وخفق القلبان .

٥ / ٨ / ١٩١٥ سلمى

ويطول تفكير الفتى ، ولكن صدر الاباء يثور ، وعزة الرجولة تحتج ، فلم يملك الا أن يعيد الهدية وهذه رسالته :

سلمى ! ياعزيزتي .

الى ان ينقضي العمر ، أنا مدين لهذه اليد الكريمة التي مسحت بها على كبدي ، لتدرأي الهم عنه . ولكني أصدقك نبأ كبريائي ، فهي فوق ما اجد من دنياي الظالمة هذه . وانا اعجز

من أن أريدها على ما لا ترضيه . وما اظن الا أني ساشقى بها في غدي ، كما شقيت بها في يومي ، وإذ اسألك غفران هذا الجحود اقول . عيشي واسلمي :

٦ / ٨ / ١٩١٥ وحيد

نفض الفتى يده من هذه الرسالة ، وعاد الى همه ، ولكنه لم يعش عليه الا قليلا ، فلقد الهمه الله فذكر بيتاً صغيراً ، دخل في ملكه وهو طفل ، هدية من والده أيام يسره ، فوجد فيه ضالته ، ولم يلبث أن باعه بيع المضطر ، بثمن بخس ، واشترى نفسه من الجندية ، وهكذا نجا من بعض همومه .

واشتد خطر الحرب ، وادلهم الخطب على النـاس في البلدان العربية الجاثمة على شاطىء البحر الابيض. فهاجر الى المدن الداخلية ، مع من هاجر اليها من الأسر القادرة ، وغير القادرة. ويأتي يوم فاذا الفتاة مقبلة مودعة ، ويراها الفتى شاحبة اللون ، حزينة النفس، كسيرة الطرف . فيشتد عليه الكربان : كرب الفراق ، وكرب القلق عليها ، ويقف حائراً جزعاً مستسلماً ، ولـكن امر الرحيل كان مبرماً ، فيذعن للقضاء ، ويشيعها بقلبه وروحه ودموعه .

ثم يعود وفي القلب هم جديد. فينطلق الى حيث لا يراه الناس يبكي، فيتمثل بقول سحيم بن ابي الحسحاس :

ماذا يريد السقام من قمر
كل جمال لوجهه تبع
ما يرتجي، خاب، من محاسنها
أما له في القباح متسع ؟
غير من لونها وصفرتها
فازتد فيه الجمال والبدع
لو كان يبغي الفداء قلت له
ها انا دون الحبيب ياوجع !

ولا يمضي زمن طويل حتى يعلم الفتى باشتداد المرض على فتاته في غربتها تلك ، فيحيا من اجلها في الظلام ،على قلق وخوف. ويفكر في الامر فلا يجد بين يديه من حيلة غير السفر لزيارتها ، ويعقد العزم ويشد الرحال ، ولكن القضاء لا ينتظر احداً، فيستأثر بروح غالية قلما جاد بمثلها القدر. ويرد النعي على الفتى ، فيعلم بأنها رددت ذكراه حينما كانت تجود بنفسها ، وتستقبل أخراها . فنزل به الهم موجعاً ، والحزن طويلا ثقيلا ، وكان فزعه عظيماً . وفي يومه الاسود ذاك ،

احس انه وحيد حقاً ، وان طريقه وعرة موحشة ، وان ليس له من دنيا الناس ، الا انه شقي معرق في الشقاء ، وان كان يرفل في ثوب انسان سعيد . بل هو منذ يومه الفاحم ذاك ، لا يرتل آيات الذكر الحكيم ، ولا يسمع القراء يرتلونها ، ولا يفتح نافذة ، ولا تلفظ على مسمع منه كلمة جار أو جيرة ، أو مهاجر أو هجرة ، ولا يقع على مفاتن للجمال ، أو محاسن للخلق ، الا ذكر فتاته الراحلة ، وطلب لها الرحمة والرضوان . أما الدمع الصبيب من قلبه ، وأما النار بين اركان نفسه . فهما بعض سره ووسيلته الضارعة الى ربه .



- ١٦ -

ويحول حظ الفتى من دنياه دون مناه . فترغمه الايام على خدمة الحكومة في وظيفة تقدم اليها بالفحص فنجح .

هكذا بدأ العمل مبكراً ، وتحمل اثقال الحياة صغيراً ، وسلك مسلكا لا خيار له فيه ، وانما كان الخيار لتكاليف العيش القاهرة . وكم في الدنيا من احلام واهداف وأدتها الاقدار ، فامست اشلاؤها منثورة ، هنا وهناك ، على طريق الحياة ، تمر بها المصائر فتقهقه شامتة ساخرة .

وذهب الى الديوان ، فوجد مكانه في غرفة ضيقة بين موظفين اثنين . فتعرف اليهما ، وشرع يؤدي واجبه على تهيب وحذر ، ولكنه ما لبث أن أنس برفيقيه . وهو يصغي الى هذا الحديث بينهما :

- طال ليلي ، ولكن لم انم !

- أفي حبيب ، أم حبيبة كنت أرقاً تفكر طول ليلك ؟

- ما اكثر ظنونك يارجل ! إني لأفهم التفكير في الحبيبة ، اما في الحبيب ... فهذا ما لا عهد لي به ...

- ولكن أهذا غريب ؟
- نعم . واكثر من غريب .
- أجهل أم تجاهل ؟ نحن في زمان الشهوات الطليقه .
- كن في أي زمان شئت ، ودعني من ظنونك .
- ولكن فيم كان أرقك الليلة ؟ .
- في زميلنا زبور افندي ! هذا الذي مات من قهره ...
- اطلب الرحمة للمسكين وانزعه من فكرك . فما يفيد الحزن والاسى ، للراحلين والمتخلفين .
- كيف ! وذكراه ما انفكت تتردد على خاطري ، وشبحه ما برح في خيالي ، يلح كأنما يريد ان يستشهدني على قسوة الانسان على الانسان ...
- أحضرت الرجل في ساعاته الاخيرة ؟
- نعم . ورأيت آيات البؤس والقنوط بادية الظلال على وجهه المكفهر .
- هانت عليه الحياة فمضى !
- نعم ، إذ هان عليها !
- ولكن لماذا انزلت درجته واحيل على المحكمة ؟ كنت في

الاجازة كما تعلم ، وليس لي علم تام بقصته .

- كانت ابنته مريضة ، فواجه نفقات طارئة ، وحاول ان يستدين فما افلح ، فأوقع في الحساب خطأ ليحصل على ما يسد نفقة ابنته . هذا ما ظن فيه . ولست اصدق هذا الظن .

- لقد كان له مندوحة من ارتكاب هذا الخطأ - إن صحت التهمة - لو انه بسط يده قليلا .

- ماذا تقول ! ؟

- اقول لماذا هذه العفة ؟ ألم يبلغك حديث الحسابات الكبيرة في المصارف لبعض الموظفين من اخواننا ؟ فلو سلك زيور هذا السبيل الذي سلكوا ، لجاءه من الاوراق المالية ما ينفق منه عن سعة : على ابنته وغير ابنته ، وما يضمن له طرد الفقر على طول الخط ...

- أتريد أن تصمه بالعفة الفارغة .

- لست اريد شيئاً . ولكن قل لي بماذا تفسر موقف الرجل ؟

- افسره بالرجعية في التفكير ... على رأي من همهم أن ينعموا ويترفوا ، وأن يجدوا المال من أي سبيل أتى ...

- كيف تطلب العفة في يومنا ؟ وهذه الطائفة المعلومة من

التجار تنثر الاوراق المالية ، عشرات ومئات والوفاً ، بل وعشرات الالوف ، إذا صح ما تتداوله الألسن في المجالس.

- لماذا اخترت هذا التقسيم للاوراق المالية ؟.

- لانها تعطى على قدر الضمائر ، وإن شئت على قدر المناصب. فمن الناس من يبيعك بعشرة دنانير . ومنهم من يعز عليه ضميره بعض الشيء ، فلا يرضى منك الا بالمئات .ومنهم هذه الشخصيات من ارباب المناصب العالية ، فأنت لا تجرأ على أن تمد اليها يداً دون ان تكون فيها الالوف...وإن كانت اهلا - وعند انفسها - لان تبيع ضمائرها باقل من هذه الالوف... مئات أو عشرات ...

- وما ذنب طائفة التجار وهي تطعم مما تأكل .

- لا ذنب لمن يكرم عاله .أما ان تستغل حاجة الشعب الفقير ، فتأخذ منه كثيراً وكالمختلس باليمين ، وتعطي كالمتفضل بعض الموظفين بالشمال .فانت إذن مجرم مرتين : مرة بما افسدت من خلق الموظف بهذا الاغراء ، واخرى بما امتصصت من دماء الجمهور ، حين بعته حاجته بعشرات امثال قيمتها.

- لا تكن جائراً على التجار . أما ترى بعضهم يوزع الزكاة

المفروضة ، ويساهم في بعض الاعمال الخيرية ؟

- ليس لمن يؤدي الزكاة أي فضل ، فهي مال الله اعطاها عباد الله ، اما هذه المساهمة في الاعمال الخيرية فهي تئن وتعوي لو أنك اصغيت اليها ، وذكرت كيف ، وتلبية لاي نداء وقت.

- وما رأيك في هؤلاء الموظفين الذين اصابهم تخم الترف والنعيم ؟

- لماذا هذا السؤال الخبيث ؟

- لجلاء الموقف فقط ...

- الا توافقني على انه حان لمن يتبجح بدعوى العفة والنزاهة ، أن يصمت !

- نعم ، وحان له أن يندي جبينه ايضاً !

- دعنا من حديث الموظفين والتجار . اني لشديد التفكير بأسرة زيور افندي . الا تعلم اني قابلت المدير بالامس ، اسأله الموافقة على جمع اعانة لها من الزملاء .

- ليس لي بذلك من علم ، وماذا كان الجواب ؟

- لاذ المدير بالقانون ليخفي كراهته للرجل حتى بعد موته .

- وما ذا يقول القانون ؟

- لست ادري ولكن المدير يدعي بأنه يحظر جمع الاعانات في

في الدوائر الرسمية .

- ولكن زيور المسكين كان موظفاً وحقه على زملائه ان يساعدوا أسرته من بعده .

- قل هذا لغير مديرنا الرجل الطيب ، القدير النزيه ...

- الا تعلمني بسبب هذه الكراهة ، فلست اعرف لها سبباً .

- كان زيور افندي شريفاً في صلاته ، نبيلا في اخلاقه ، نزيهاً في مسلكه ، وهذا هو السبب . أفلا يكفي عندك ؟

- هو كاف وزيادة ، عندي وعند من عرف صاحبنا المدير الجليل !

- آمنا بحق المدير في ان لا يقرب غير الاشباه ، ولكن القانون وضع للناس جميعاً . فلماذا يقسو به على بكر ، ويرحم خالداً

- لعلك تشير الى سانح افندي الذي قيل انه استباح مال الجامع ، فبلعه على طوله وعرضه ...

- نعم اشير اليه ، فلقد ثبت هذا بالتحقيق كما تعرف ويعرف الناس ، ومع ذلك فان مديرنا الهمام لم يفعل شيئاً ، فهو قد احتفظ باوراق الجريمة ، وظل هذا السانح ، نقي العرض ترمقه النواظر المغرمة ... وهو في اوج العلى !

- وهل تستغرب من مديرنا أن يجعل الصيف والشتاء على سطح واحد ؟

- لست استغرب منه شيئاً ، ولو جمع هذه الفصول الاربعة على سطحه .

- الا يدهشك أن تعلم بأنه في مجالسه الخاصة يطعن في سانح افندي ، ويذكر نفاقه ودسه ، وضعف اخلاقه وذمته ؟

- اذن ، لماذا هذه الرحمة ؟ أو هـذا التغـاضي ؟ أهو الخوف من لسانه ، أم من دسه ، أم من ماذا ؟

- هو الخوف من كل اولئك . ومن اشياء اخرى لا يجري بها اللسان .

- حقاً ان هذا السانح افندي مسعود في دنياه ، فكأنه من مواليد ليلة القدر ...

- أو لعله من مواليد النفاق البارع ايضاً ...

- الا تراه حين يتحدث يعصر كيانه ويطوي ما بين شفتيه ، ويحرك اعلاه يمنة ويسرة ، ويدير حديثه على مثل دائرة لولبية تنتهي لتكر راجعة على ذات الطريق مثنى وثلاث ورباع ، حتى يمل السـامع ، ويحس هو نفسه سخف الفـاظه المرددة . وحينذاك يستأنف الكر بمطة من رقبته ومطـات من فمه بكورة ، فتشفق عليه إذ تشعر بعظم المجهود الذي يبذله ...

اغرب من هذا أن يعد عند أناس - يقيسون الكلام بطوله - آية في الفصاحة والذكاء .

- لقد اتقن الفن ...

- نعم ، في بيئتنا هذه . وعند مديرنا هذا !

- حقاً ان هذا المدير لرجل مدهش .

- في ما ذا ؟

- اتعرف وجيه الطائفة الارثودوقسية .

- اعرفه جيداً ، واعرف انه رجل طيب وشديد الحماسة لدينه قوي الايمان بالسيد المسيح .

- وصلت الى الهدف من حيث لا تدري .

- لم افهم منك .

- غضب مديرنا ذات يوم ، في ظرف لا حاجة الى ذكره ، فسب دين احد الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين . وكان الوجيه حاضراً ، فثارت عصبيته لدينه ، وكادت تسوء العقبى ، لو لا هذا الانسان الذي اراد الخير للاثنين فحسم الشر المنفجر بينهما . وليس هذا كل ما في الامر . فلقد مضت الايام ، فاذا المدير في مأزق يحتاج فيه الى رضاء صاحبه . فما وني بل تقدم

اليه بطلب الانجيل هدية ليقرأه ويستفيد من تعاليمه ! ونسي فعلته تلك ، كأن لم يصنع بالامس شيئاً . فماذا ترى في هذه الاخلاق ؟ .

- ارى ثملبة لا ترتضيها الرجولة والخلق .

- ولكنها نفعت . وهي طريق المجد في بلادنـا . . .

وانقضى وقت العمل على الفتى ، وهو يصغى الى حديث زميليه فعلم ما جعله يكره الخدمة في الحكومة منذ بدأها تحت امرة رئيسه ذاك ، وعرف في ألم لاذع ، ويأس موجع ، ولأول مرة في حياته الجديدة ، ان مظاهر الكثيرين من الناس لا تحمل من معاني الشرف والنبل غير المعنى الذي يحمله السراب ، وان ما يقدمه لك من هو دونك ، من ضروب الاجلال والاكبـار ، ومن هو اكبر منك من الوان العطف والرعاية ، هو في الغالب دون الحقيقة بكثير ، أو هو شيء مزيف ، وربما كان لغواً لا طـائل تحته ، وان وفاء اشباه البشر اذا أنت امتحنت الوفاء شيء ليس له من الصدق نصيب .



(١٧)

ويواظب الفتى على عمله ، في هذه البيئة التي ترى في الاخلاق غير ما يرى ، وتجد المعاذير والمبررات لاشياء ، ليس من السهل عليه ان يجدها ، فيشعر بالعيش ثقيلا ، فلا يطيب له ، وبالحياة مرة ، فيكرهها . ولكنه غير مخير ، فلقد ارغمته تكاليف الحيـاة ، على العمل في هذا الديوان وليس امامه من سبيل سوى الصبر ، فهو الأداة الى الرضا بما لا بد منه .

وتمر الشهور ، فيفيق على شيء من الخبرة ، ويصطفي لوده زميلا ، لخلال فيه وجدها ، وشهامة توسمها ، وخلق رضي اعجب به ، ولاتحاد في الاشواق ، وتوافق في الشعور .

ويعلم الفتى بان زميله هذا ابن حمال فقير ، وأنه عصامي مقدام ، تعلم اللغتين ، الانجليزية والافرنسية في الكتب ، وليس في المدرسة ، فيكبر في عينيه ، لهذه العصامية ، ولروحه المرحة ، ولهذه الشخصية الكريمة البارزة في شبـابه الباسم ، وعضلاته المفتولة ، وهيكله الجميل .

وتزداد بينهما قربى الصداقة ، ويزداد التفاهم الروحي ، وتطوى الكلفة ، ويفضي احدهما الى الآخر ببنات صدره ، واشواق قلبه واحلام شبابه ، فتتوثق الآصرة ، وتحل الثقة ، ولا يمضي زمان حتى يكونا قد اتفقا على ان يصرفا من الليل وقتاً ، في مطالعة الكتب المفيدة ، يقرأ احدهما ، ويصغي الثاني ، فاذا عثر القارىء رده اخوه الى الصواب .

وحين كانت تعرض لهما جملة غامضة ، أو يقفان على رأي طريف يأخذان في النقاش ، ويتحاوران ، وربما قام بينهما الجدل في بعض الاحايين ، بل ربما قام قوياً عنيفاً ، ولكنهما كانا ، على كل حال يخرجان على تفاهم ووفاق .

اما الكتب المحببة اليهما ، فكانت على الاكثر ، هذه التي كتبها الدكتور جوستاف لوبون في علم الاجتماع ، وترجمها الى العربية احمد فتحي زغلول الكاتب المصري المعروف . ولعل الصديقين مدينان لهذه الكتب بشيء كثير .

ولكن صديق الفتى كان ، في مجالسه ، يجهر بظلم اعوان السلطان ، ويتنقص الحكم التركي ولا يتحرج ، وهو اذ يسوق الحديث في مثالب الاتراك ، يسوقه ساخراً لاذعاً ، في جرأة لا

تعرف الحذر والاعتدال ، ولا تخشى العواقب .

ولعلك تعجب من هذه الجرأة حين تعلم بانها وقعت في عهد دولة وصفت الحرية الشخصية فيها بهذه العبارات : (١)

« يبيت المرء في منزله ، وعياله الى جانبه ، وهو غير آمن ، من أن يفاجئه طارق في دياجي الظلام ، فيخطفه من بين ذويه . إذا خطا نظر الى ما وراءه ، خشية أن يكون له من ظله رقيب عليه . وإذا تكلم مع صديق ، أو رفيق على قارعة الطريق ، تراه يكاد يهمس همساً ، خوف أن تبدر منه كلمة تحتمل التأويل ، كأن القسطنطينية رجعت الى زمن كاليغولا في رومه ، والطير نزلت على رؤوس الناس كبيرهم وصغيرهم .

« ولا يكثر على كل من اقام زمناً في الآستانة ، أو بعض مدن الولايات ، أن يؤلف مجلداً فيما سمع ، أو رأى من غرائب الوشاة . ودونك مثالا واحداً من اخف ما لقي الابرياء من شرهم .

« عرفت شاباً من ابناء التجار ، قصد الآستانة لعمل مالي . وكان كثير التردد علي ، فما مضت بضعة ايام ، حتى أتاني ووراءه

(١) عبرة وذكرى ، أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ، لسليمان البستاني . ص ٢٣ — ٢٥

ذنبان واني مع كل ما خبرت ووعيت من اخبار الجواسيس ، عجبت أن يكون صاحبي موضع ريبة ، فيجر وراءه هذين الذيلين . فلما جلس وبقي الرجلان على مقربة من الباب ، سألته عما بدا منه حتى بات موضع التهمة . فأقسم انه لا يعلم سببا ، وانه لم يشعر الا وهذان يتعقبانه ، ويرافقانه كظله ، فاذا مشى ، مشيا ، واذا دخل بيتاً ، انتظراه لدى الباب ، واذا ركب عربة أو باخرة من بواخر البوسفور ، ركباها .

« فظللنا نسعى اشهراً لنقف على السبب ، الى ان اخذت الشفقة يوماً ناظر الضابطة ، فاطلعه على ورقة مرفوعة الى المابين ، من واش يقول فيها : ان فلانا ، أي صاحبنا ، اتى الآستانة ، قصد استطلاع احوالها ، قبل أن يذهب الى باريس ، وينشىء جريدة ، ملؤها الطعن في الدولة ، وهو ذو عزوة كبيرة ، ومقام كبير ، وله شهرة عظيمة بين كتاب العصر .

« واني لو نفع القسم وقتئذ ، لاقسمت ان فلانا هذا لا يعرف ما الكتابة في الجرائد ، ولم يخط بحياته فيها حرفا ، ولا أثر لتلك العزوة ، وذلك المقام ، ولم تخطر له تلك الفعلة ببال ، ولو في المنام . وانما هي مكيدة نصبها له رجل طمع في مشاركته في تجارته ،

فلما ابى أن يشركه معه ، عمد الى هذا الانتقام الدني» .

« وهكذا بقي صاحبنا سنوات يتظلم وما من سميع . فلا يفرج عنه فيرجع الى بلده ، ولا يؤذن له بعمل يرتزق منه . وانت تعلم ما تفضي اليه حاله بعد سنوات .

« وانها مع هذا ، مصيبة ، لا تعد من كبار المصائب ، اذ لم يؤذ الرجل بجسده ، ولم يصادر ماله . وهذه القيود والاغلال في اعماق السجون ، تكاد تشتبك غيظاً لكثرة ما اثقلتها المعاصم والاقدام وهذه بنغازي وبعض المدن النائية ، في اطراف السلطنة تضج منتحبة لما ترى من شقاء المبعدين . بل هذا البوسفور يوشك أن يغور تلهفاً على تلك الجثث ، فيقذف بها الى ثغريه ، خشية أن تبيت دفينة في بطون الحيتان » .

تلك حال الحرية الشخصية ايام سلطان الترك ، قبل الحرب العالمية الاولى فكيف هي وقد اعلن النفير لهذه الحرب ، واستحكمت حلقات العداء العنصري بين العرب والترك ، واخذت آيات الثورة العربية تبدو في احداث ، اقلقت رجال الحكم !

وتلك جرأة صديق الفتى في اعلان نقمته على الاستبداد . فلقد كان غريب الاندفاع ، بل عجيب الاقدام في هذا السبيل ، فانتبهت

اليه الانظار ، واصغت الآذان ، وضاقت به الصدور ، وترصدته العيون ، وساءت فيه الظنون ، وهو ماض لا يبالي بنصح ولا يرعوي مما هو فيه بتحذير .

ويفكر الفتى في صديقه ، وفيما ينتظره من سوء العاقبة ، وفيما يرده الى الاعتدال ، ويبعده عن موطن الخطر . فيهتدي الى فكرة قضاء أيام في لبنان . فالوقت صيف ، والجبل جذاب محبب الى نفوس من عرفوه ، وذاقوا حلاوة العيش تحت سمائه ، فوق الارض السندسية ، على القمم أو السفوح ، وفي الوديان ، خلال اعواد التوت ، وتحت العرائش ، وفي ظلال الأرز ، بين احضان الطبيعة الفاتنة ، وعلى مشاهد الاوانس الغيد .

فكر الفتى في هذا ، ليشغل صاحبه عما كان فيه ، علّه يرى جديداً ، فيلهيه الجديد ، وان كان التجسس الحكومي في تلك الايام عاما ، وخطره قد حاق بالناس جميعاً . وتنفع الحيلة ، ويمضي الصديقان من فورهما الى التماس الاجازة ، واعداد الأهبة . فاذا انقضت ايام ، فنحن نرى صاحبنا وصديقه يشرفان على الدنيا الجميلة في « بحمدون » .

امامك السفح ينحدر الى الوادي ، فينحسر عن الهضاب الخضراء

والاشجار الريانة ، بينها القرى الجميلة . تلوح هنا وهناك ، موصولة الحواشي ، بالمدارج والشعاب تغيب في المنعطف ، وتبدو في الثنية فيزدان الجبل ، وتبسم الدنيا ، ويفرح القلب .

وامامك البحر ، موصول الرقعة بالافق ، متحد اللون بالقبة الزرقاء ، مبرقش الصفحة ، بهذه الأمواج البيضاء ، تشق طريقها في الزرقة الشفافة ، هادئة أو ثائرة ، تلاعب النسيم ، أو يلاعبها النسيم ، ولعلها ، بعد هذا كله ، تومض الى حكمة الخالق في حركة الكون الدائبة .

ويعتاد الصديقان أن يقصدا الاماكن المشرفة ، وكل لبنان اماكن مشرفة ؛ فيختلسان الهواء النقي المنعش من رؤوس القمم ، ومن بين الاشجار في الغابات والادغال ، فيشعران بالنشاط ، ويستمتعان بالدنيا وبالشباب .

وذات يوم بينما كانا عائدين الى مثواهما ، رأيا النهار والليل مجتمعين في غادة راهبة ، صنعها الله مثالا لقدرته على الابداع ، وتركها تروح وتجيء في جنات لبنان : معرض الجمال في دنيا الارض . وكانت في وقوفها على قبر في جوار الكنيسة كالملاك في صورته ، والعابد في خشوعه ، والتقي في وقاره ، والحزين في صمته .

ويحترم الفتيان قدس خشوعها ، فلا يتحركان ، لئلا يذهب

الجلال ، ويتكلم الهدوء . وتطيل الوقوف ، ويطيلان التسبيح الهامس ، على هذا المشهد الفاتن البديع . ثم تحس وجودهما على مقربة منها ، فتلتفت فتراهما فتنطلق الى الكنيسة في تواضع العباد ، وجـلال الاطهار . وينطلقان الى مثواهما يرددان التسبيح ، ويقدسان الفتنة غير المضلة .

ويتحرك قلب الصديق للراهبة الحسناء بالحب والشوق والامل ، ويظل بقية يومه ، وطول ليله ، يفكر ويحلم . ثم يأتي الغـد ، فينهض يرقبها ايشهد الجمال والجلال في وقفة الامس . ويعيش أياماً على الحب والشوق والرجاء ، فلا يحدث رفيقه الا بحديث جمالها الريان .

وذات م يكونان في الحديقة المطلة على الوادي . فتهل الراهبة بقامتها الرشيقة ، ووجهها المضيء ، فتجلس على مقربة منها ، وتأخذ تقرأ في كتابها على غير انتباه منها اليهما . فيهتبل صديق الفتى فرصته السعيدة هذه ، فيجهر متسائلا فيقول : « أليس في كتاب الله : هذا المفتوح امامنا جميعا ، ما يغني عن مطالعة الكتب المسطورة ؟» .

وتفيق الراهبة على هذه المفاجأة ، بنظرة مستطلعة ، فيبادر الشاب الجريء فيوجه اليها الحديث :

— اتسمحين بان أتعرف الى هذا الوجه الجميل البارع ؟

ونظر اليها نظرة فيها بعض الخوف ، وشيء من الأمل . فاحمر وجهها ، واغضت تفكر على استحياء ثم رفعت رأسها تقول بصوت هادىء رزين :

— اينما وقع بصرك فثم وجه الله . مجد الرب ، تصل الى حظيرة السماء .

— لست اريد زاداً من كلام سيدنا المسيح ، فأنا من فلسطين المقدسة ، ونحن الذين وزعوا آياته على الناس . ولكن خافقي . . . في وجيب ، منذ رأى الفتنة تعيش في الظلام . (واشار الى مسح الراهبة) وأنا إنما استجدي الرحمة ، واملي ان يتسع هذا الصدر السمح لحبي المجنون . . .

فعادت الى اطراقها ، وظل الحيرة يمشي على الديباجة الرقيقة الناعمة ، ثم رفعت رأسها ورمته بنظرة رحيمة مشفقة — كالتي يلقيها الكبير على الطفل حين يعبث بما يثير الدهشة والاستغراب في النفس — وقالت مترفقة :

— لو كنت اصلح للغزل ، أيها الشاب الجريء ، لما رأيتني في هذا الكساء . كرس قلبك وشبابك لأخرى . . . ممن يفهمن هذا الشيء الذي أنت في سبيله .

– ولكني ارى الجمال والشباب مسجونين في هذا الثوب الظالم واريد لهما الحرية ، عل اليد الناعمة تمسح على قلبي ، فيهدأ وينعم بالحب البرىء ، يعقد على سنة الرب . فما انا بالغوي الفاجر . أما غيرك فلا رأي لي فيه ، وما أنت الا ضالتي .

فنظرت اليه طويلا ، وقالت في حنان ظاهر :

– لقد جعلتني احبك ، أيها الشاب المجنون . ولكن حذار أن تخطيء ، فأنا أحب من نوع آخر غير مفهوم .

– وكيف ... يا راهبتي الجميلة ! يكون الحب غير المفهوم هذا .

– آه ! لست اقدر على افهامك .

– أتسخرين ؟ ، أو لعل في الامر قصة .

– لست اسخر .

– ما زلت في ظلام ، وانا احب النور ...

– اسمع ، يا صديقي الجريء ، ! انا ارض جدباء لا تعرف الربيع .

– آه ! هذا لغز محير حقاً ! وانا لا اطيق الالغاز ، وانما خلقت للصراحة .

– ترفق ، ولا تدخلني في التجربة .

- آه ، لو تسمعين .
- آه ، لو تعقل !
- انا عند عاطفتي .
- وانا عند معرفتي .
- لقد كرست لك قلبي ، فلا تمنعيه من أن ينهل من معين الحب الطاهر .
- لا تترك الشيطان يتكلم بلسانك .
- لست اريدك على الاثم بل على الحب الطهور .
- ولكني لا اعرف الحب الذي يعرفه الناس .
- وما ذا تعرفين إذن ؟
- اعرف شيئاً لا تفهمه أنت ، ولم يفهمه غيرك من قبل ، واحسرتاه ! واصدق الظن أني محرومة من هذا الذي يثيرك ويثير غيرك ، فأنا إن شئت شيء من شذوذ الطبيعة .
- أنت شيء من شذوذ الطبيعة ... وكيف هذا ! ألست في اجمل جسم ، واحسن عافية ؟ . ثم أتجحدين أن الله خلق الجمال ، وخلقه للحب ؟ !
- لست اجحد ما ذكرت ، ولكني افهم الحب على غير ما تفهمه

أنت ، ويفهمه الناس .

- أعود الى ما كنا فيه آنفاً ؟ !

- نعم ، لتمي ما أريد .

- هل تقصدين أنك اسمى عاطفة من الناس جميعاً ؟

- أقصد أني محرومة من هذه العاطفة . والان ارجو أن تسمح لي بان أذهب الى واجب ينتظرني .

- ولكن على أن اراك في الغد ، هنا في مجلسنا هذا ، وفي وقتنا هذا . وحذار من حبي المجنون ...

- لك ما تريد، ايها الفتى العجيب !

ونهضت الراهبة الجميلة الى واجبها ؛ ومشى صاحبنا العاشق المفتون يبث الحسرات والآهات والاحلام . ويتحرق شوقاً الى الغد الموعود ، أما الفتى فراح ينشد بلسان صاحبه :

وراهبة في « بحمدون » رأيتها
فراح لساني لـلالـه يسبح
مفاتن خلق الله فيها تألقت
وفيها لنور الله ملقى وملمح

تقربت منها في خشوع ورهبة

وقلت لعلي بالتقرب أفلح

وطارحتها ما قد وجدت من الهوى

فقالت وهل عندي لوجدك مطارح ؟

آله السما قد خصني بجماله

وشاء لي النسك الذي هو أصلح

فان كنت عفاً ، فالمحبة حلوة ،

والا فدع شيئاً يشين ويفضح

وينقضي اليوم في التطواف والاحاديث ، والليل في السمر والاحلام . ويأزف موعد اللقاء فيحترم الفتى قلب صديقه ، فيتركه يذهب وحداً الى حسنائه الراهبة ، ثم لا تمر ساعات حتى يعلم من صديقه بأنها :

اقبلت عليه تهادى وقد افتر ثغرها بابتسامة حلوة فيها كثير من الرضا ، وفيها بعض التحفظ ، وشيء من الخفر ايضاً ، ثم جلست تقول :

- كنت بالامس طفلا يعبث ، واليوم اريدك ان تكون عاقلا .

- هذه فاتحة ظالمة كثوبك كهذا . وانا اريدها مضيئة كوجهك رحيمة كقلبك .

- اسمع ياطفلي العزيز . سأحدثك بشيء لا أعلم ماذا يكون وقعه في نفسك . ولكني أعلم اني اصدقك الحديث ، واريحك من هذا العبث :

- اخذ الظلم يتكلم .

- لست اظلمك ، وانما اريد لك الرحمة ، فاسمع .

أذكر أنك ، في البدء ، رأيتني اقف على ضريح ثوى صاحبه منذ شهور ، وكان املي من دنياي ، فهو خطيبي . واعترف باني ما لبست مسح الرهبانية ، من بعده ، الا من أجله . فلقد كنا حبيبين حقاً ، ولو خيرت ما اخترت سواه من الناس جميعاً . ولكنه كان ثائر العاطفة مرهف الشعور ، أما انا فلا اعرف من احساس الحب غير ما اجد بين الاخت واخيها . فكان لا يقع عندي على ما يحب ويتمنى ، فيسيء الظن ، ويرتد حزيناً موجعاً ، كاظماً لا يبوح بما يجد . ولعل هذا فعل في نفسه ثم في صحته ؛ فاخذ جسمه يذوب ، ولونه يشحب وانا غافلة غافية .

وتمضي الشهور ؛ فاذا مرضه يشتد ويزداد فيقضي عليه واحسرتاه ! وها انا اليوم وحيدة بلا امل . وما كان أمامي الا أن انذر نفسي للسيدة العذراء ؛ وأنت تراني قد فعلت .

وليت علمي وقف بي عند هذا الحد ! إذن لهان علي بعض هذا

الحزن الطويل ؛ والهم الثقيل . ولكني قرأت يومياته الحزينة الباكية ؛ وكنت لا علم لي بها من قبل ، فرأيتني أمام اشياء غريبة فيها ظنون بعيدة ؛ وفيها خوالج حائرة ، واوجاع بالغة كان يحسها ويحبسها بين جنبيه .

ولقد اخذتني الحيرة ، وحاقت بي الدهشة ، ولما لم اجد لما قرأت موجباً في نظري ، أو تعليلا يسكن اليه قلبي ، حدثت طبيبي ، ووصفت له ما كان بيني وبين الراحل الغالي ، فعلمت اني كنت منه كقطعة الثلج من الجذوة المتقدة ، وان هذا الذي انا فيه يعرفه الطب ، وان كان نادراً ، ويسميه غياب الاحساس التناسلي ، او برود العاطفة الجنسية .

ولعلك تدهش إذ تعلم اني برغم ما بذل الطبيب من مجهود غير يسير ، ما زلت اجهل هذه المتعة التي يسعد بها الناس فيما يذكرون ، وما احسبك بعد الذي قصصت عليك من أمري وأمر صاحبي ، الا منصرفاً عما أنت فيه . فأنا ياصديقي لا اصلح للحب الذي تريدني عليه . فلقد خلقني الله للنسك ، وليس للهوى ...

ـ حسبي منك ان اكون اخاً . فهل تبخلين بالحب على هذه الشريطة ؟

- بل ارحب فرحة . سلمك الرب وحمتك العذراء .

- إني إذن لسعيد .

واتفق الاثنان على اللقاء ما دام في الجبل ، وعلى ان تكتب اليه . ويكتب اليها من بلده ، واستأذنت ، فودعها بالحب والاحترام ، ثم عاد الى صديقه يقص عليه بقية الحديث .

وتمر الايام على صاحبنا ، وهو معلق القلب ، موصول الأنس براهبته الحسناء ، ولكن الاجازة تنقضي ، فيغادران لبنان الى العمل المرهق ، والحياة القلقة الخائفة ، ويعود الفتى الى التفكير فيما يجنب صديقه خطر لسانه في ذلك العهد الرهيب حقاً ، ولكنه يفاجأ بالنقل الى وظيفة اخرى في بلد آخر ، فيمضي الى طيته ، والحزن والخوف يملآن قلبه ، ثم ما لبث أن علم وهو في مكانه الجديد . بأن الحاكم العسكري رأى في صاحبه قرباناً يتزلف به الى رؤسائه العطاش الى الدماء . . . ، فجعله ، في تقاريره اليهم ، على صلة وثيقة بالجيش الانجليزي في مصر ، يطلعه على انباء الدولة ، بواسطة قوارب الصيد !!!

وقدر الله للشاب الجميل الجريء ان يموت ، حين حكم عليه

الاعدام شنقاً ، وراح كما راح غيره من شباب العرب الصارخ في وجه الظالمين ..

ولم يمض يوم على هذا النبأ الذي امض الفتى ، وفجعه في صديقه بالحميم ، حتى وصل اليه كتاب كان الراحل قد اوصى بان يرسل اليه سراً ، فاذا الموضوع ، مثالب الحكم التركي ، واذا العنوان « عبرة وذكرى » .

وهنا جاشت عين الفتى ، وتحرك خاطره ، فأنشد في رثاء صاحبه :

غاب الذي يملاء الابصار مطلعه
وإن تكلم راح القلب يسمعه
فارقتني وفؤادي بعد في وجع
من ثكله ، ما لرزئي فيك يشفعه ؟
أين الأماني؟ أمانيك العذاب مضت
أنت الذي إن عصاه الصعب طوعه
قد كنت للوطن الغالي ذخيرته
لا تأتلي جاهداً فيما يرفعه

وكم بذلت لتقضي بعض واجبه

والناس تعمل فيما فيه مصرعه

حتى قضيت فكنت الوعي منبعثاً

والسهم منطلقاً للضيم تدفعه



(١٨)

وتدور الايام بالفتى ، وحزنه الحي ينفق من عافيته ، وشعور النقمة يلازم نفسه ، فلقد اوجعه موت صديقه وشيكا وشنقاً ، وكان وجعه بالغاً ممضاً ، فهو - فيما يرى - لم يأت أمراً إدّاً ، إلا ما نفس به الغمة عن صدره ، وفرج الكرب عن نفسه ، وأعرب عن رأيه ، ودافع عن قومه .

وذات يوم يفيق على صلة ود جديدة ، الفى قلبه يمت بها الى زميل تركي ، تقاربت بينهما الاخلاق ، وتوافقت الخواطر ، ونحن نرى صاحبنا قد أنس بعض الانس بصديقه الجديد ، ولا سيما حين وجده ينقم على القائمين بالامر من بني قومه ، ما استباحوا من قتل النفوس البريئة ، وما أتوا من نفي الاسر العربية الكريمة ، وليس من شيء يدنيك من قلوب الآخرين ، أو يدني الآخرين من قلبك ، اكثر من توافق المشاعر ، واتفاق الآراء ، وكما كان التوافق في الشعور ، والاتفاق في الرأي مقربة الى القلوب ، كان التخالف في الاحساس ، والتباين في الحكم مأتاة للتناكر والتباعد بين الناس .

وبينما كان صاحبنا وثيق الصلة بزميله ذاك ، وردت انباء الثورة العربية ، فراحت الأفواه تهامس بحديثها ، واستقبلتها القلوب بالفرح ، ونشطت بها العزائم ، وانتعشت الآمال ، ونيطت بسيد قريش الجديد ـ طيب الله ثراه . وتخف ، من بعد ، وطأة القوم قليلا ، ويفيقون على عظم ما أثموا ، وكبيرة ما جاروا واجترحوا ، فيهونون على النفوس بعض الهوان ، ويأخذون في التقرب الى بعض العناصر ، ويحاولون استغلالها بالذهب تارة وبالشعور الديني اخرى ، ثم بكل ما تصل اليه اليد الحاكمة من وسيلة وأداة ، فيكون لمحدثنا من هذا الانقلاب المباغت ، باب للحديث الصريح يدور بينه وبين صديقه التركي :

ـ أرأيت ما آل اليه الامر أخيراً بين قومينا ؟

ـ هذا ما كنت اتوقع ، وانا أرى المقدمات .

ـ قل رأيك ـ بالله عليك ـ أينا جار على الآخر ؟

ـ لست اكذبك ما اعتقد . إن رجال الحكم منا هم الجائرون ، فيما يلوح لي .

ـ هل هذا شيء جديد ، فيما تظن ، أو هو قديم منذ عرف الترك العرب ؟

ـ اظنه قديماً منذ أيام الدولة العباسية .

ـ هل من شاهد عندك يرجع الى عهد السلاطين ؟.

ـ وضعتني في موقف حرج ، فليس ابغض على النفس من أن لا يجد المرء مناصاً من أن يتهم قومه . على انك لست في حاجة الى شاهد ، فالشواهد أمامك على الماضي كثيرة ، وعلى الحاضر أكثر ولكني مفض اليك بحكاية قد لا تكون قريبة جداً من موضوع حديثنا ، ولكنها تعطيك فكرة فيها بعض المغزى :

آلت الخلافة الى السلاطين العثمانيين ، فأراد احدهم أن يضرب المثل على أنه اختص العرب بميله وقلبه ، فاختار نفراً من قومك اعواناً ، الى جانب اعوانه من بني قومه .

وكان بين ما اختار من العرب شخص اخلص الخدمة للدولة ما وسعه الاخلاص ، واحسن العمل ما وسعه الاحسان ، ولم يلوث قط يده أو لسانه . ولكن الذين يعيشون في القصور ، قلما اخترقت ابصارهم جدران الابهاء المزخرفة ، فهم لا يعرفون عن الخارج غير المكذوب المزيف ، ويعيشون بين المظاهر ، وفي احضان التقاليد ، في شبه غفوة أو غفلة . ولعل سلطانهم على الناس جعلهم لا يرضون الا عن الزخارف ، ولا يسمعون الا الحديث المزور !

اما الرجل الذي نحن في صدده فكان لا يرى من واجباته أن يموه ويزور ويطري ويقرظ ، فهو لم يعرف هذا في بيئته ، ولم يعرفه في طبيعته ، واخيراً احس أنه الغريب بين هؤلاء الناس من اعوان السلطان ، وان مكانه يجب ان يكون غير هذا المكان . فالتمس السلامة في الاعتزال ، فأبت عليه ظروفه الا أن يصبر على العبء الثقيل ، فصبر ، ولكن وجع النفوس يفضي ، في الغالب ، الى وجع الابدان .

ويقع هذا ، فيكون للرجل من اعتلال صحته فرصة لاعتزال الخدمة ، فيغتنمها ، وتعود اليه العافية ، ويرضى عن نفسه ، وترضى هي عنه .

ولكن صاحب الجلالة لا ينسى صاحبنا المغربي فيذكره بعد ثلاث سنين من مرضه واعتزاله ! فيبعث اليه برسول يقول : — « أمرني جلالة السلطان بدعوتك الى المائدة (الشاهانية) إن كنت في صحة تساعدك على التلبية » ! ! ! فيدهش الرجل ، لانه يعلم بان صاحب الجلالة صاحب ادب رفيع ، وذوق سليم . فكيف وقعت الدعوة بهذا الشكل الغريب ! .

ولكنه لا يرى في التساؤل طائلا . فيجيب الرسول : « بلغ جلالة السلطان اني في صحة جيدة ، وعافية طيبة ، ولكني لا احب أن

أخيب ظنه . . . فأنا اعتذر ، وادعو له بدوام العافية »

وعلق التركي على هذه الحكاية بقوله : « لعل صاحب الجلالة اراد أن يؤكد عطفه على العربي بالكلام . . . ولو بعد ثلاث سنين ، وان شئت فقل بالدعوة الغريبة في شكلها . . الى المائدة (الشاهانية) !

انتهى حديث الصديقين . ولعلك لا تعجب حين تعلم بان الألفة دامت بينهما الى ما بعد جلاء الاتراك عن هذه الديار ، فلقد اختار زميل الفتى ، الوطن العربي وطناً جديداً . وربما كان لرأيه في قومه بعض الأثر فيما اختار.



(١٩)

لم تكن مصيبة العرب في العهد التركي مقصورة على التحكم في الاموال والرقاب ، والاستبداد بامور السياسة والادارة والتعليم ، ومحاولة كم الافواه ، واخفاء التراث العربي ، واضعاف الاخلاق الوطنية ؛ لم تكن مقصورة على هذه الاخطار ، ففي ذلك العهد ذر قرن الصهيونية ، فاسترخى له بعض الحكام ، بما لا يخفى على الناس من هذه الوسائل التي تخصص اليهود بالفطرة في التذرع بها ، وبذوا الشعوب كافة بما اصابوا على يدها من خير ونفع . فرأت الاعين في فلسطين أوليات المستعمرات اليهودية ، برغم ما وضع من القيود والموانع الرسمية في سبيلها .

كان الناس - فيما يذكر الفتى - عائشين في جهل وفقر وغفلة وشمل شتيت ، فباعت هذه الادواء الاراضي من اليهود ، ولم تبعها القلوب ، وليس بالامر العجيب إن سطا الذئب على الحمل حين يسيب على غير حراسة .

وتنبه في احدى المدن الفلسطينية افراد على الخطر الداهم ، فتعاقدوا على حرب الصهيونية ، وكان صاحبنا الفتى احدهم ، ولا يزال الى اليوم يذكر حماسة ذلك الشيخ الضرير الذي إرتأس

الحزب ، وكان خطيبه ، وحماسة احد الصيادلة وكان فيه العضو المرجى ، ولكن ماذا فعل هذا الحزب ؟ كان قصاراه ، اقامة الحفلات للخطابة . وتحبير المقالات للصحف ، الى جانب الكلام على خطر الصهيونية .

أما العدو اليهودي فكان جاداً في البناء والانشاء ، ماضياً في شراء الاراضي ، غاذاً في سيره ينشد بعث الثقافة واحياء الوطنية اليهودية ، متخذاً جميع الذرائع مشروعها وغير مشروعها الى اهدافه وامانيه الطامحة .

وادرك الفتى ان الهمم والعزمات ليست من الحفاظ على قدر ما يدرأ الخطر ، ويحمي الذمار ، وان الاستعداد مقصور على طلب السلامة والراحة ، في ظل السكلام ، وان الطاقة عاجزة عن الجهد الشاق الطويل . فوضع يده على قلبه عند هذه الخيبة ، واخذ ينتظر يوم تبعث العزيمة ، ويفيق الوعي ، وتحول الحال الى الجد المقدام .

ليس من شك في اننا نطلب السلامة جميعاً ، ولكننا نختلف على من ينبغي أن ينهض بهذا الامر ، و كيف يجب أن نمضي فيه ، أو كيف نصل ! ويرى محدثنا أن لا سبيل الى قيام الوحدة في الرأي ، والوحدة في السعي ، الا على يد قيادة تخاطب النفوس ، وتمسح على القلوب ، وتذهلنا عن التنافس في طلب الجاه ، واستغلال

غفلة البسطاء . فهل لفلسطين الواعية الشابة أن تثبت رشدها فتقع على هذه القيادة ؟ ذلك ما سيجيب عنه الزمان ...

يشعر الجمهور بالخطر ، ويكافح قبلما يفكر ، ولا يرجع في الحقيقة الى رأيه ، أو يقف على الاقل ليروي ويتدبر ، سوى نفر قليل من الناس . فهل لفلسطين الشابة الواعية أن تعرف مكان هؤلاء النفر فتخرجهم الى الميدان ؟ ، فهم وحدهم ـ وليس غيرهم ـ القادرون على تزويدها بما تحتاج اليه من مال وخبرة واخلاص وفراغ للعمل ، وهم وحدهم القادرون على الجواب عن هذا السؤال : كيف نحمي الذمار ؟

اما الذين غرتهم الحياة الدنيا ، واستهواهم مالها وعرضها وزخرفها ، فعقوا بلادهم ، بما كبر إثمه ، وجل خطبه ، وكان لليهود خيره ، وللعرب ضيره وشره ، فأولئك نتركهم للتاريخ ... وإن كان رجاؤنا أن يحسوا بعد اليوم ، كبيرة ما اجترحوا ، ووجع ما جرحوا ، لعلهم يرعوون ، والى ربهم ووطنهم يرجعون ...

وقبيح بنا وإن قدم العهـ د ، هوان الآباء والاجداد (١)

(١) لأبي العلاء المعري من قصيدته الدالية المشهورة .

(٢٠)

خرج الفتى من جماع ماذاق من بأس زمانه ، وما مر بك من ذكرياته ، برأي لا يدري مبلغه من السداد . ولكنه يتخيل فيه السلامة ، ويتوسم العافية . فهو يعتقد بان الاقتصاد لا يقف ، فيما ينفع الناس ، عند الحدود المالية ، بل يتمداها الى ما يصلك بالآخرين. فأنت حين تقتصد ولا تسرف ، فيما تعقد من أمل ، وتعلق من رجاء على صلاتك بغيرك ، تكفل لنفسك الكثير من الراحة والرضا ، وتجنبها تعب البال ، وقلق الخاطر . فليس من شيء ، عند صاحبنا أوجع من رجاء خائب ، وامل ضائع .

ولعل رأيه هذا قائم على الظن بان القلوب ممسكة ضنينة بعواطفها ، لا تبذل ، في الواقع ، غير القليل ، وأن اللسان انما يكرم بما ليس يملك ، فلا تعويل على ما يعطيك . وأنت خليق إن راقك رأي الفتى بأن تعرف مدى الطبيعة البشرية ، فلا تترك رقعة آمالك في الآخرين تتسع لاكثر من هذا المدى . ولن يكون اسفك ، مع الاقتصاد ، عظيما ، كما لو تركت نفسك على سجيتها ، تفرض لك

الحظوظ بالكيل الاوفى ، ثم لا تقع يدك منها على طائل .

قال الاحنف بن قيس : « ما كشفت احداً عن حالي عنده ، الا وجدتها دون ما كنت اظن ».

واثنى رجل على علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، وكان له متهماً ، فقال : « انا دون ما تقول ، وفوق ما في نفسك » . رحم الله هذين الرجلين الكبيرين ، فلقد نفذا الى العلة الغالبة في الفطرة البشرية.

وينفعك الاقتصاد ايضاً ، حين لا تسرف في تقدير مصائبك ، وتتلقاها على أنها شيء لا بد منه في الحياة ، فتبدأ العمل من جديد ، مهما كانت خسارتك أو آفتك ، أو كان عثار جدك ؛ فأنت إذ ترضى بدنياك على عيبها ، وتستقبل احداثها بهذا الادراك ، تجد السبيل الى اصلاح حالك ، ولم شعثك . وربما جئت بالمعجزات ، وبالآيات البينات .

ومع هذا الذي خرج به الفتى من تجاريبه ، لا يزال قليل الخبرة . وليس من عجب فهو اليوم في غرة شبابه ، وفي بداية الشوط من حياته ، ولما يفض اليك الا بجزء يسير من ذكرياته . وامامه من صور الحياة بقية تطالعك بوجوه باسمة أو شاحبة ، راضية مطمئنة أو حزينة قلقة ؛ وتعرض عليك الواناً من الاحداث وتهاويل من الاخلاق ،

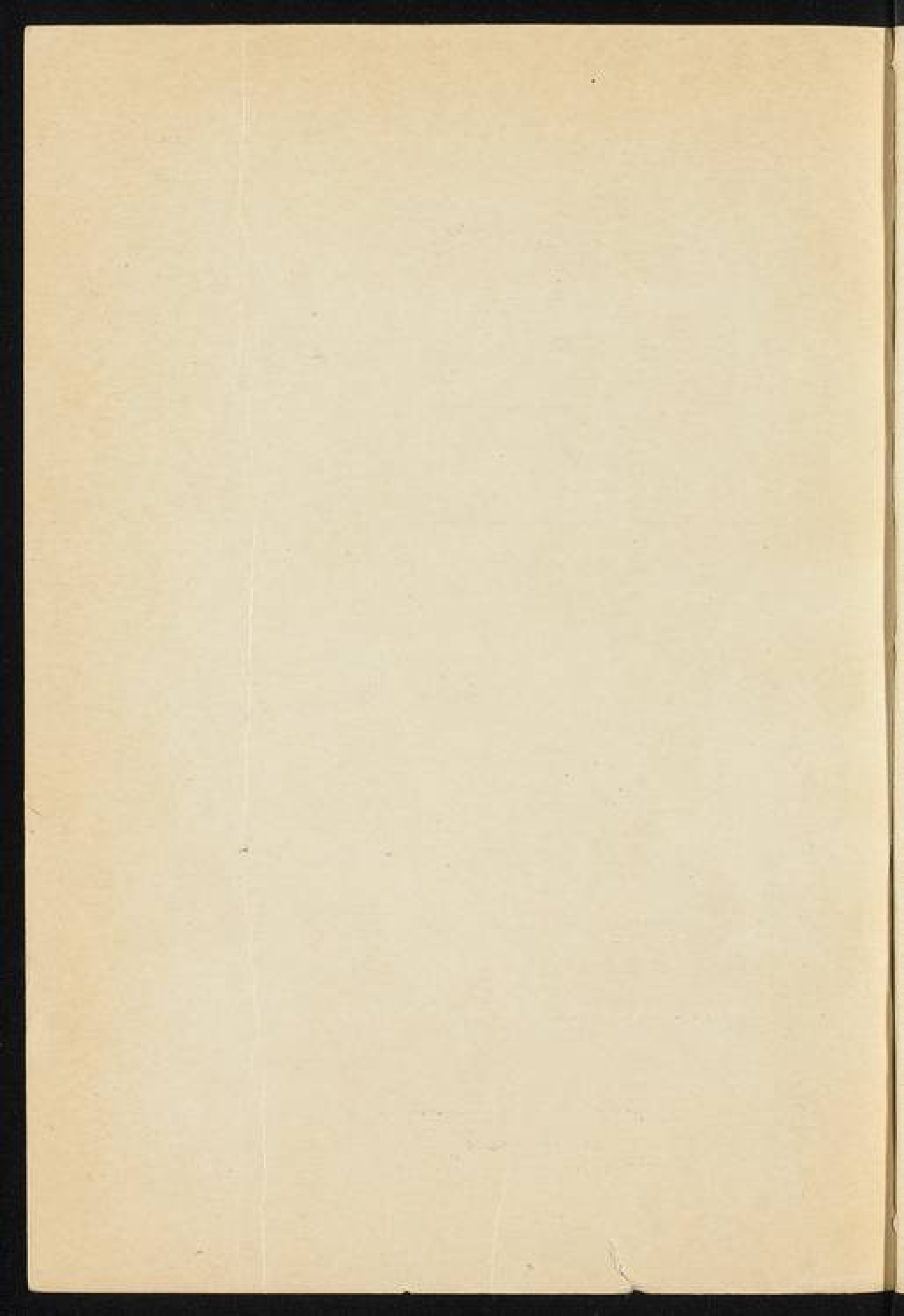
ربما فتحت عينيك على طريف غريب ، وربما أثارت في نفسك عجباً ، وأحدثت امراً ايضاً . وهي فيما يقدر لها ، تتسع لعرض آخر ، لعله يجد الفرصة ، فيستأنفه في جزء ثان من هذا الكتاب . إن شاء الله .

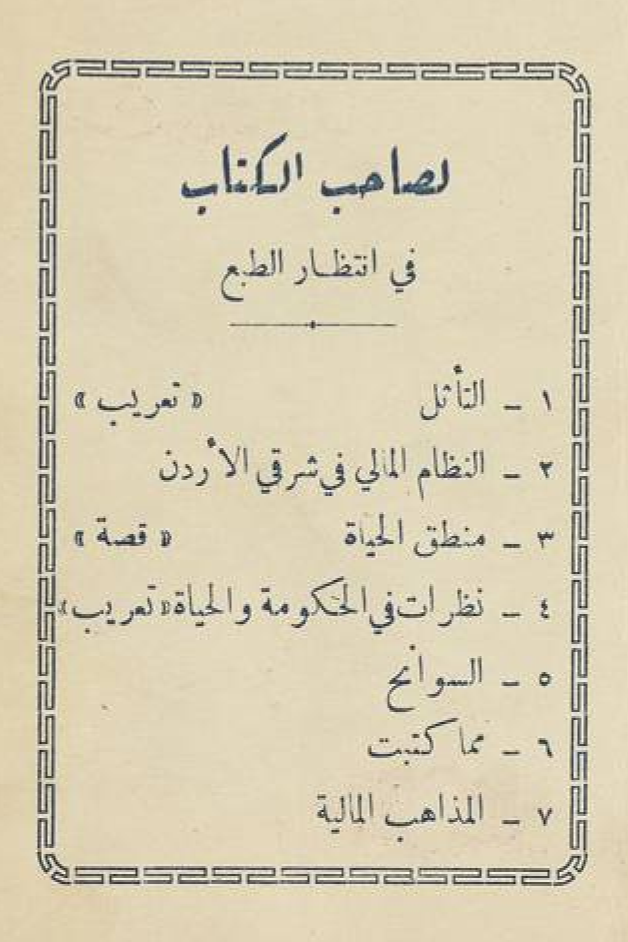


استدراك

لم يخل طبع الكتاب من هذه الاغلاط :

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠	٤	من ما	مما
١٥	٥	يطمح	يطمع
٣٠	٣	من الترويح عن النفس	من ترويح النفس
٤٣	١٣	بل تعمل	بل على أن تعمل
٤٧	٢	لا يعرف	ولا يعرف
٥٤	١٥	على الصمود	على الثبات
٨٤	١٢	مع من	من
٩١	١٠	ينديي	يندي
١٠٠	١٦	جرة	جرأة





لصاحب الكتاب

في انتظار الطبع

١ ـ التأثل «تعريب»

٢ ـ النظام المالي في شرقي الأردن

٣ ـ منطق الحياة «قصة»

٤ ـ نظرات في الحكومة والحياة «تعريب»

٥ ـ السوانح

٦ ـ مما كتبت

٧ ـ المذاهب المالية

